رسالة في
الفرق بين نوعي العلم الإلهي والكلام

للإمام سراج الدِّين الأرمويّ
(٦٨٢هـ)

ويليها

رسالة في إثبات الواجب تعالى

للإمام نجم الدِّين الكاتبيّ
(٦٧٥هـ)

ومعها مناقشات النصير الطوسي للمصنف

تحقيق
محمد أكرم أبو غوش

2 0 1 2

□ رسالة في الفرق بين نوعي العلم الإلهيّ والكلام
تأليف: الإمام سراج الدِّين الأرمويّ
تحقيق: محمد أكرم أبو غوش
الطبعة الأولى: ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م

دار النُّور المبين للدراسات والنشر
تلفاكس: ٤٦١٥٨٥٩، جوال: ٠٧٩٥٣٩٤٣٠٩، ص.ب: ٩٢٥٤٨٠ عمّان ١١١٩ الأردن.
البريد الالكتروني: info@darannor.com الموقع على شبكة الانترنت: www.darannor.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله المتعالي عن الإدراك بالمعاني، المتقدِّس عن تقديس المقدِّسين وتوهُّم المتوهِّمين ونظر النَّاظرين وفكر المتفكِّرين، القاهر بحجب الجلال والجمال عن إدراك ذاته، وبقوَّته كلَّ شيء حتَّى خضع له تعالى كلُّ شيء طوعاً أو كرهاً.

وصلَّى الله على سيِّد السَّادات محمَّد عبد الله -ونِعْمَ العبد- ورسوله ومصطفاه وحبيبه، وعلى آله وأصحابه ساداتنا وموالينا أجمعين وسلَّم تسليماً.

وبعدُ فإنَّ مِن منِّ الله تعالى على عبيده أن رزقهم عقولاً يتلمَّسون بها طريق معرفته تعالى، وجعل التَّفكُّر في خلقه تعالى من أفضل العبادة، وأمر مراراً في كتابه العزيز أن ينظر النَّاس ويتفكَّروا في آياته تعالى في الآفاق وفي أنفسهم ليصلوا إلى أنَّ الله تعالى هو الحقُّ المبين، وأنَّه لا إله إلا هو، وأنَّه على كلِّ شيء قدير ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحج:٦]، وليتعرَّفوا غناه تعالى وكمال ذاته وجمال صفاته.

ولَمَّا كلَّف تعالى النَّاس بما اختاروا غفل أغلبهم عن هذا الأمر العظيم، والتفتوا إلى مشتَّت السَّعي أو بعيد البغي، وآثروا الحياة الدُّنيا ذات اللَّهو واللَّعب. أمَّا من اشتغل بالفكر والنَّظر فتاهوا في مهامهِ الأفكار وغاصوا بحار الأنظار ليحصِّلوا كنوز الأسرار. إلا أنَّ هؤلاء جميعاً عادوا عاضِّين أصابع النَّدم لَمَّا لم يجدوا نوراً يهدي في تلكم الظُّلمات، إلا قوماً أراد الله تعالى سعادتهم في الدَّارين بأن نوَّر لهم طريقهم بخير نور ألا وهو القرآن العظيم، فعرفوا أوَّل الطَّريق ومنتهاها، وأُضيء لهم جانبا الطَّريق بأصول العقل والنَّقل، فمن مستعجل مترفِّع، ومن مؤسِّس بانٍ ليخطو بعده على خطاه إلى هدى الله تعالى.

فكان بحمد الله تعالى بمحض منِّه وفضله أن جعل للمؤمنين على الحقِّ أحقَّ دليل، ولم يجعل للكافرين عليهم سبيلاً في أيِّ سبيل، فكان الدِّين الحقُّ عالياً دائماً مرفوعاً بأكفِّ السَّادة العلماء على مرور الدُّهور ببركة سيِّدهم سيِّدنا محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم تسليماً ونوره الذي حباه به وخلَّصه له، فحصل للقول الحقِّ القوَّة أينما كان وكيفما نُظر إليه،

فليس الحقُّ إلَّا أنَّ الحقَّ هو الله تعالى، والكلُّ إلَّاه عبيدٌ له، وما فينا إلا فضل رحمته أو حقُّ عدله.

وبعد أن ثبت الحقُّ بدأ العلماء في النَّظر في الدَّقائق لتقوية قويِّ الأدلَّة وإبطال زائفها، وقعَّدوا القواعد وأسَّسوا الأركان لتكون لمن خلفهم آية ينظرون فيها نظراً حقّاً ليصلوا الموصل الصِّدق.

فمن هذه الرَّسائل رسالتانِ ماتعتان للإمامين الإمام سراج الدِّين والملَّة قاضي القضاة الأرمويِّ رحمه الله تعالى، والإمام نجم الدِّين الكاتبيِّ القزوينيِّ رحمه الله تعالى، وهما من مدرسة الإمام فخر الدِّين والملَّة الرَّازيِّ رحمه الله تعالى ورضي عنه، وكفى بذلك تعريفاً لهما ولقدريهما.

ورسالة الإمام الكاتبيِّ فيها مناقشة وبينه وبين العلَّامة نصير الدِّين الطُّوسيِّ في أدلَّتها، ما زادها نفعاً وإمتاعاً.

وهما ليستا لمبتدئ طلب العلم، فلن يفيد منهما كثيراً. ولو بدأ العلمَ بطريقه بالتَّدرُّج في التَّعلُّم بالمتون ثمَّ ما بعدها بنصيحة شيخ معلِّم ومدارسة أخ قرين لكان خيراً من قراءة ما لا يدرك مقصوده ولا يحصِّل موضوعه.

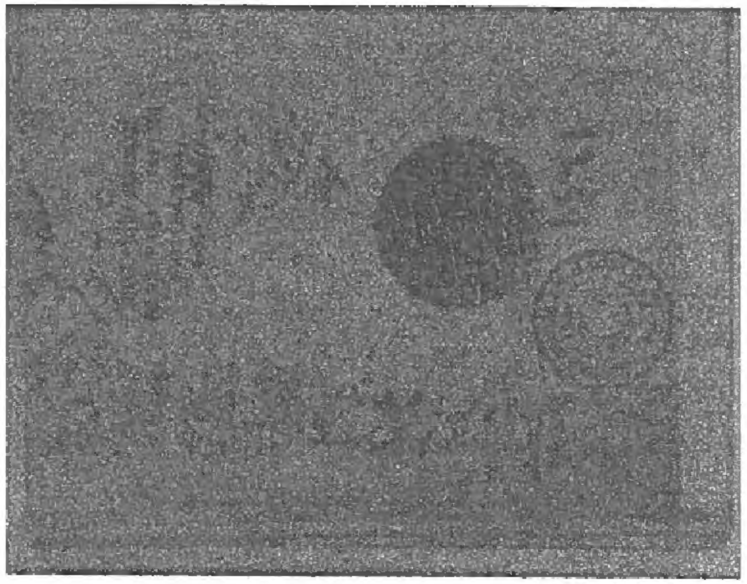
والعمل في الرَّسالتين صفُّهما، ثمَّ إخراجهما وترتيبهما بما رأيت أنَّه مفيد، ثمَّ كان بعض التَّعليق عليهما، ولا يخلو هذا العمل من نقص، فأدعو الله تعالى أن يتقبَّل ويعفو ويهدي إلى كلِّ خير.

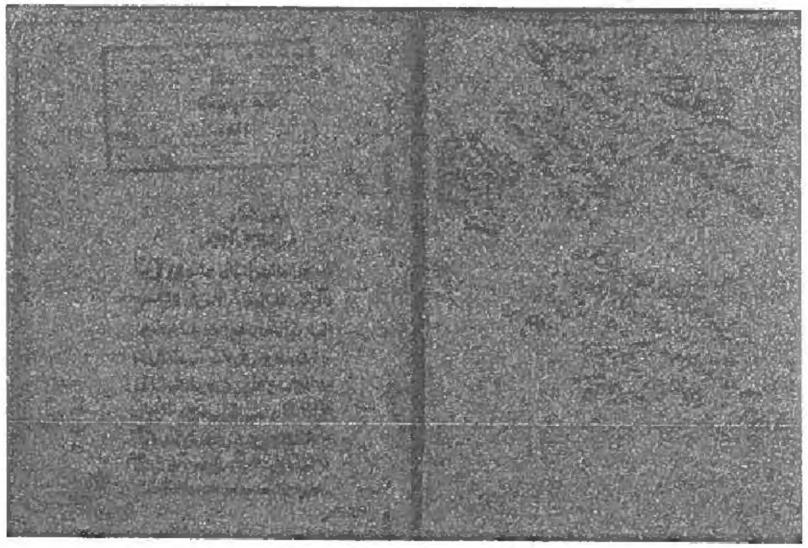
وقد رتَّبت الرَّسالتين بأن ذكرت تراجم العلماء، وقد أطلتُ فيها مستقصياً لأنَّ الأئمَّة الذين من مدرسة الإمام الفخر على عظمهم قد انتُقص حقُّهم في زمان الجهل هذا لحساب شهرة جهلة سطحيِّين لا يستحقُّون أن يُذكروا أصلاً.

ثمَّ قدَّمتُ لكلٍّ من الرَّسالتين قبل البدء بهما بمقدِّمة صغيرة، ثمَّ بعد المقدِّمة الرِّسالةُ مع قليل تعليق. والرسالتانِ في مجموع رسائل في مكتبة راغب باشا رحمه الله.

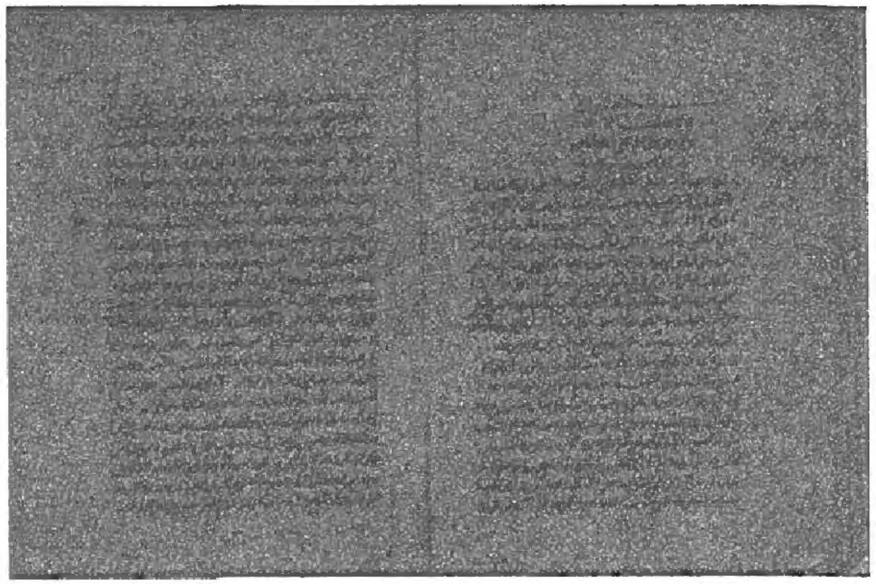
والله تعالى هو الموفِّق والهادي.

صورة الغلاف وصورة أوَّل المجموع

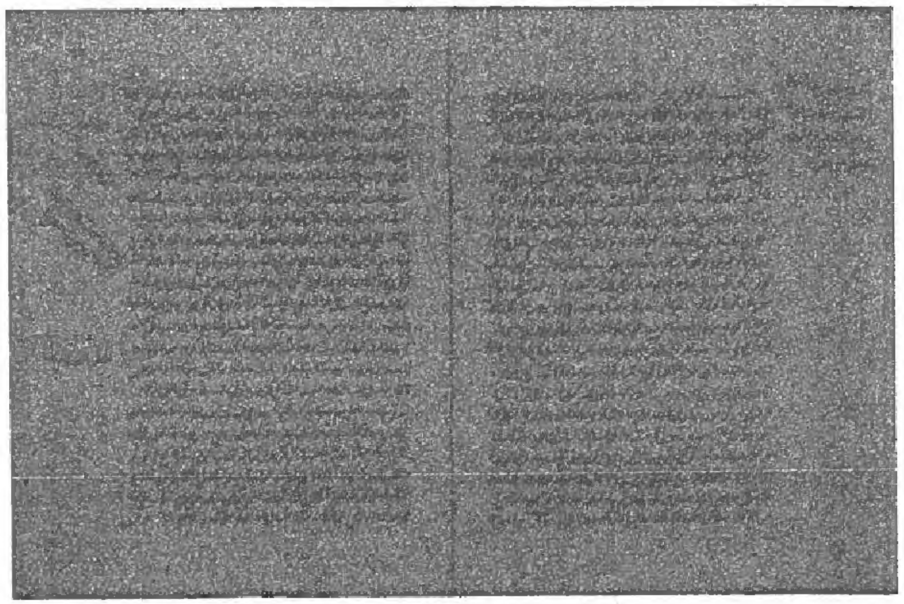




أوَّل رسالة الإمام الأرمويِّ



أوَّل رسالة الإمام الكاتبيِّ



التراجم

وسكن دمشق، وقدم مصر ومكث فيها، وذهب إلى مَلَطْيَةَ وإلى بلاد الفرنجة وإلى بغداد كما سيأتي من قصص، ثمَّ ذهب أخيراً إلى قونية[(١)] وتُوُفِّي فيها وهو قاضي القضاة فيها سنة ٦٨٢هـ رحمه الله تعالى ورضي عنه.

فبعث صاحب الموصل إلى ابن يونس يعرفه بذلك، ويقول له أن يتجمَّل في لبسه وزيه ويجعل له مجلساً بأبهة لأجل الرسول، وذلك لما يعرفه من ابن يونس أنه كان يلبس ثياباً رثَّة بلا تكلُّف، وما عنده خبر من أحوال الدنيا، فقال نعم.حكى جلال الدين قال: فكنت عنده، وقد قيل له هذا رسول الفرنج قد أتى وقرب من المدرسة، فبعث من تلقاه، فلما حضر عند الشيخ، نظرنا فوجدنا الموضع فيه بسط من أحسن ما يكون من البسط الرومية الفاخرة وجماعة مماليك وقوف بين يديه وخدام وشارة حسنة. ودخل الرسول وتلقاه الشيخ وكتب الأجوبة عن تلك المسائل بأسرها. ولما راح الرسول غاب عنا جميع ما كنا نراه، فقلت للشيخ يا مولانا ما أعجب ما رأيت من تلك الأبهة والحشمة، فتبسم وقال يا بغدادي هو علم».

ويروي ابن خلكان: «ثم قال ابن المستوفي: ووردت عليه مسائل من بغداد في مشكلات هذا العلم فحلها واستصغرها ونبه على براهينها، بعد أن احتقرها».

ويروي ابن خلكان أيضاً: «كنت بدمشق سنة ٦٣٣ هـ وبها رجل فاضل في علوم الرياضة فأشكل عليه مواضع في مسائل الحساب والجبر والمقابلة والمساحة وإقليدس، فكتب جميعها في درج وسيرها إلى الموصل ثم بعد أشهر عاد جوابه، وقد كشف عن خفيها وأوضح غامضها وذكر ما يعجز الإنسان عن وصفه، ثم كتب في آخر الجواب: فليمهد العذر في التقصير في الأجوبة، فإن القريحة جامدة والفطنة خامدة، قد استولى عليها كثرة النسيان، وشغلتها حوادث الزمان، وكثير مما استخرجناه وعرفناه نسيناه، بحيث صرنا كأنا ما عرفناه، وقال لي صاحب المسائل المذكورة: ما سمعت مثل هذا الكلام إلا للأوائل المتقدمين لهذه العلوم، ما هذا من كلام أبناء هذا الزمان».

هذا وقد رحل إلى الإمام ابن يونس رحمه الله الإمامُ أثير الدِّين الأبهريُّ رحمه الله وأخذ عنه مع أنَّ كتب الإمام الأبهريِّ – الذي هو تلميذ للإمام الفخر الرَّازيِّ رحمهما الله– كانت تُقرأ وتُدرس، فكان ذلك من الإمام الأبهريِّ شهادة بعلوِّ الإمام ابن يونس.

(١) قال ياقوت الحموي في «معجم البلدان»: «قونية بالضم ثم السكون ونون مكسورة وياء مثنّاة من تحت خفيفة من أعظم مدن الإسلام بالروم وبها وبأقصرى سكنى ملوكها».

والإمام سراج الدِّين الأرمويُّ قريب الإمام أفضل الدِّين الخونجيِّ[(١)] (ت:٦٤٦هـ) رحمهما الله، والإمام أفضل الدِّين من تلامذة الإمام فخر الدِّين الرَّازيِّ رحمه الله، فقريب جدّاً أن يكون قد تلمذ عليه[(٢)]، وإنَّه لَّما ذهب سفيراً من مصر إلى الإمبراطور فريدريك -كما سيأتي- كان الإمام الخونجيُّ قاضياً بمصر.

(١) وجدتُ ذكر قرابته عند اليونينيِّ في «ذيل مرآة الزَّمان»، وترجمة الإمام الخونجيِّ رحمه الله تعالى في فصل ترجمة الإمام نجم الدِّين الكاتبيِّ رحمه الله.

(٢) فالثَّابت تلمذة الإمام السِّراج على الإمام كمال الدِّين ابن يونس، وقريب اليقين أن يكون قد تلمذ على الإمام أفضل الدِّين الخونجيِّ. وقد ذكر ابن خلدون في مقدِّمته أنَّ الإمام السِّراج تلميذ للإمام فخر الدِّين الرَّازيِّ نفسه -رحم الله جميعهم-.

وذكر قريباً منه صاحب «تاريخ مختصر الدول» فقال: «وفي هذا الزَّمان كان جماعة من تلامذة الإمام فخر الدِّين الرَّازيِّ سادات فضلاء أصحاب تصانيف جليلة في المنطق و الحكمة كزين الدِّين الكشِّي و قطب الدِّين المصريِّ بخراسان و أفضل الدِّين الخونجيِّ بمصر و شمس الدِّين الخُسرَوْشاهيِّ بدمشق و أثير الدِّين الأبهريِّ بالرُّوم و تاج الدِّين الأرمويِّ وسراج الدِّين الأرمويِّ بقونية».

وهذا ممكن وإن كان الإمام السِّراج قد وُلِدَ سنة ٥٩٤هـ فيكون عمره عند وفاة الإمام الفخر اثنتي عشرة سنة فقط؛ فيمكن أن يكون قد انتسب إليه تلمذة عليه وهو في هذه السِّنِّ.

ما وجدتُ من سيرة الإمام السِّراج

قَدِمَ إلى مَلَطْيَة من مصر قاصداً التَّشرُّف والتَّقرُّب من الشَّيخ أوحد الدِّين حامد بن أبي الفخر الكرمانيِّ الصُّوفيِّ[1] (ت:٦٣٥هـ)، وقد استقبله حاكم مَلَطْيَة علاء الدِّين كيقباذ السَّلجوقيُّ بنفسه «ورحَّب له ترحيباً يليق بجلالة قدره وعظيم منزلته، واستفسر منه عن مراده من الحضور، فلمَّا أجابه وكشف عن رغبته التَّقرُّب من الشَّيخ أوحد الدِّين الكرمانيِّ استنكر ذلك واستغربه وقال له: إنَّ ملطية لا تليق بمقام القاضي سراج الدِّين الأرمويِّ - فيكون وقتذاك قاضياً في مصر - ولا تتَّسع إلى طموحه وعلومه التي في حاجةٍ لها المدنُ الكبيرة. ثمَّ أسكنه مدرسةً أمامَ الجامع وعيَّنه مدرِّساً فيها»[2].

ولازم الإمام الأرمويُّ الشَّيخ الكرمانيَّ؛ فكان يذهب إليه كلَّ يوم بعد العصر مواظباً على الأذكار عنده.

وقد كان الإمام السِّراج يذاكر أحد العلماء في الفلك والمنطق والرِّياضيّات هو جمال الدِّين الواسطيُّ[3]، فأقنعه بالذَّهاب إلى الشَّيخ الكِرمانيِّ فلازمه كذلك.

(١) وهو من أقران الشَّيخ ابن عربي الحاتميِّ، وقد نقل عنه ابن عربي في بعض كتبه.
(٢) نصُّ محقِّق «التَّحصيل» د. عبد الحميد علي أبو زنيد نقلاً عن كتاب مطبوع بالفارسيَّة هو «مناقب أوحد الدِّين حامد بن أبي الفخر الكرمانيِّ». مطبوع في طهران سنة ١٣٤٧هـ.
(٣) لم أجد في ترجمته شيئاً.

وكان الإمام سراج الدِّين يتردَّد على الشَّيخ جلال الدِّين الرُّوميِّ[1] مع أنَّه كان ينكر أحواله[2]، وقد عاده في مرضه وسقاه الدَّواء، وعند وفاته تقدَّم أتباعه وتلاميذه للصَّلاة عليه.

وقال أحمد الأفلاكيُّ في كتاب «مناقب العارفين» إنَّه قد سمع الإمام سراج الدِّين الأرمويَّ يقول شعراً في رثاء الشَّيخ جلال الدِّين الرُّوميِّ وقتَ دفنه على قبره.

وقد بعث الملك الصَّالح نجم الدِّين أيُّوب[1] الإمام سراج الدِّين الأرمويَّ سفيراً إلى الإمبراطور فريدريك[2]، وأقام سراج الدِّين عنده مُكرَّماً مدَّة وصنف له كتاباً في المنطق وأحسن إليه الإمبراطور إحساناً كبيراً، وعاد السِّراج إلى الملك الصَّالح مُنعَّماً.

(١) جلال الدين الرومي (٦٠٤ - ٦٧٢ هـ) هو الشَّيخ الصوفيُّ الجليل المعروف محمد بن محمد بن الحسين بن أحمد البلخيُّ القونويُّ الرُّوميُّ. قال في «الأعلام»: «عالم بفقه الحنفيَّة والخلاف وأنواع العلوم، ثم متصوِّف (ترك الدنيا والتَّصنيف) كما يقول مؤرخو العرب. وهو عند غيرهم صاحب «المثنوي» المشهور بالفارسيَّة، وصاحب الطريقة (المولويَّة) المنسوبة إلى (مولانا) جلال الدين.
ولد في بلخ (بفارس) وانتقل مع أبيه إلى بغداد في الرَّابعة من عمره، فترعرع بها في المدرسة المستنصريَّة حيث نزل أبوه. ولم تطل إقامته، فإنَّ أباه قام برحلة واسعة ومكث في بعض البلدان مدداً طويلة وهو معه، ثم استقرَّ في قونية سنة ٦٢٣ هـ وعرف جلال الدين بالبراعة في الفقه وغيره من العلوم الإسلاميَّة، ← فتولى التَّدريس بقونية في أربع مدارس بعد وفاة أبيه (سنة ٦٢٨هـ). ثم ترك التَّدريس والتَّصنيف والدُّنيا وتَصَوَّف (سنة ٦٤٢هـ) أو حولها، فشغل بالرِّياضة وسماع الموسيقى ونظم الأشعار وإنشادها. ونظم كتابه «المثنوي» بالفارسية».
(٢) هذا بحسب نقل الدُّكتور عبد الحميد أبو زنيد. وهنا يقال إنَّ إنكار الإمام السِّراج عليه إنَّما هو لما عليه بعض مشايخ الصُّوفيَّة من الكلمات الموهمة، والله تعالى أعلم، وكثير من هذا الموهم يمكن حمله على الحقِّ، ولكنَّ الإكثار من الموهمات نفسه يُنكر. فالإمام السِّراج لم يكن مُكفراً للشَّيخ الرُّوميِّ بدليل تردُّده عليه وعيادته وصلاته عليه، فهذا منه حكم بإسلام الشَّيخ الرُّوميِّ. وهو به أعرفُ فرحمهما الله تعالى.

(١) قال في «الأعلام»: «الملك الصَّالح (٦٠٣ - ٦٤٧ هـ = ١٢٠٦ - ١٢٤٩ م) أيُّوب (الملك الصَّالح) بن محمَّد (الملك الكامل) بن أبي بكر (العادل) بن أيُّوب، أبو الفتوح نجم الدِّين: من كبار الملوك الأيُّوبيِّين بمصر. ولد ونشأ بالقاهرة. وولي بعد خلع أخيه (العادل) سنة ٦٣٧ هـ وضبط الدَّولة بحزم. وكان شجاعاً مهيباً عفيفاً صموتاً، عُمِّرَ بمصر ما لم يُعمِّره أحد من ملوك بني أيُّوب. وفي أواخر أيَّامه أغار الإفرنج على دمياط سنة ٦٤٧ هـ واحتلُّوها وأصاب البلاد ضيق شديد، وكان الصَّالح غائباً في دمشق، فقدم ونزل أمام الفرنج وهو مريض بالسُّلِّ فمات بناحية المنصورة، ونقل إلى القاهرة. من آثاره قلعة الروضة بالقاهرة» فقد مات مرابطاً رحمه الله تعالى.

(٢) أنقل إليك -بقليل تصرُّف- ما ذكر قطب الدِّين اليونينيُّ في «ذيل مرآة الزَّمان» لتوضيح تلك الحال السِّياسيَّة في علاقة الملوك الأيُّوبيِّين مع الفرنجة: «ثم توفي الملك الكامل وصارت مصر لابنه الملك العادل ثم لأخيه الملك الصَّالح نجم الدِّين بن الكامل فأرسل إليه الملك الصَّالح نجم الدِّين الشَّيخَ سراج الدِّين الأرمويَّ قريب الشَّيخ أفضل الدِّين الخونجيِّ قاضي مصر، وكان إماماً في المعقولات، وكان الإنبرطور محبّاً للفضائل والعلوم الحكميَّة وغيرها فأقبل على سراج الدِّين وأقام عنده مدَّة طويلة، وصار بين الإنبرطور وبين الملك الصَّالح نجم الدِّين مودَّة عظيمة كما كانت بينه وبين أبيه الملك الكامل. ثم عاد سراج الدِّين إلى الدِّيار المصريَّة ولما توفي الإنبرطور ملك بعده أنبولية والأنبردية وجزيرة صقلية ولده كنراد ثم توفي وملك منفريد أخوه وكان كنراد وأخوه منفريد يربان رأي أبيهما في محبة الفضائل العلميَّة وبينهما وبين البابا خليفة الإفرنج العداوة الشَّديدة».

وفي كتاب: «الحضارة الإسلامية بين أصالة الماضي وآمال المستقبل»، جمع وإعداد علي بن نايف الشّحود -بتصرُّف-: «الإمبراطور فريدريك الثَّاني (١١٩٤- ١٢٥٥م) تولَّى الملك وهو صبيٌّ، وهذا أتاح له ترك الحكم في يد مستشاريه والتَّفرُّغ للدِّراسة والاستفادة من الثقافات السَّائدة في عصره وهي العربيَّة واليونانيَّة واللَّاتينيَّة. ولا شكَّ أنَّ التُّراث الحضاريَّ الضَّخم الذي تركه العرب والنُّورمان في صقلية وجنوب إيطاليا، كان [ذا] أثر قويٌّ في تكوين شخصيَّة هذا الملك. وقد تجلَّى ذلك بوضوح في اهتمامه بالثقافة العربيَّة، وترجمة مآثرها العلميَّة، وجنوحه إلى السِّلم في حل مشاكله السِّياسيَّة، وإقامة علاقات وديَّة مع ملوك مصر والشَّام من الأيُّوبيِّين.

ونتيجة لهذه السِّياسة السِّلميَّة تعرَّض فردريك لغضب البابا جريجوري التَّاسع الذي اعتبره عاصياً ومحروماً من رحمة الكنيسة. واضطر الإمبراطور فردريك- لعلاج هذه المشكلة- أن يخرج بتلك الحملة الصَّليبيَّة العجيبة- المعروفة بالسَّادسة- التي كان قوامها ستَّمئة، جنديٍّ، ولم تُرَق فيها قطرة دماء واحدة،

وذلك لأن الإمبراطور فردريك توصَّل إلى عقد معاهدة مع ملك مصر الأيوبيِّ «محمد الكامل بن العادل» سنة ٦٢٦ هـ (١٢٢٩م) استولى بمقتضاها على بيت المقدس بدون قتال.

وفي خلال هذه الزِّيارة توطدت أواصر الصَّداقة بين الإمبراطور فردريك وبين الملك الكامل وعدد من الأمراء وكبار رجال الدولة وعلمائها مثل الملك الأشرف موسى أخي الملك الكامل، والأمير فخر الدين بن شيخ الشُّيوخ قائد الجيش الأيوبيِّ، والقاضي شمس الدِّين قاضي العسكر الذي صاحب الإمبراطور أثناء إقامته في الشام.

وبعد عودة الإمبراطور إلى بلاده، أهدى إلى الملك الأشرف موسى دبّاً أبيض، فأرسل له السُّلطان الكامل جملة من الحيوانات الغريبة من بينها فيل أثار إعجاب الناس. أما الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ فقد سافر إلى الإمبراطور كرسول للملك الكامل وتوطدت بينهما صداقة متينة.

وكان فردريك الثَّاني شغوفاً بالعلوم الطبيعية والرِّياضيَّة والفلسفيَّة، وكثيراً ما كانت تعترضه فيها مشكلات علمية ولا يجد من العلماء المحيطين به من يقدم له حلاً شافياً لها. فكان يرسلها إلى أصدقائه من ملوك المسلمين لعرضها على علماء بلادهم والإجابة عنها. من ذلك مثلاً، المسائل الرياضية والفلكية التي أرسلها إلى الملك الكامل والتي أجاب عنها العالم الرياضي المصري علم الدين قيصر الأسفوني -نسبة إلى قرية أسفون بالصعيد- فبعث بها الملك الكامل إليه مع كتاب في علم الفلك على سبيل الهدية. كذلك أرسل فردريك مجموعة من الأسئلة الفلسفية إلى الفيلسوف الصوفي الأندلسي ابن سبعين، وهي مسائل عن الكون والنفس والعلم الإلهي.. إلخ، أجاب عنها ابن سبعين، وقد عرفت باسم «المسائل الصِّقليَّة».

ولما ولي الملك الصالح نجم الدين أيوب عرش مصر، سار على سياسة الودِّ والصداقة التي اتبعها والده الكامل نحو صقلية. وتبادل مع الإمبراطور فردريك الثاني السفارات والهدايا، نذكر منها السفارة المصرية التي رَأَسَها الشَّيخ سراج الدِّين الأرمويُّ، الذي أقام مدَّة في صقلِّيَّة، وألَّف كتاباً في المنطق للإمبراطور فردريك. ويقال إن هذا الإمبراطور أرسل إلى الملك الصَّالح أيُّوب رسولاً متنكِّراً في زيِّ تاجر لينذره بحملة لويس التَّاسع على مصر».

أقول: مرَّ هنا تسليم الملك الكامل رحمه الله -المعروف بأنَّه كان مجاهداً- القدسَ للفرنجة، وذلك وإن كان من الكبائر إلا أنَّ جهة نظر الملك الكامل كانت بأنَّ أسوار القدس حينئذ كانت مهدَّمة بما يمنع أن يتحصَّن فيها الفرنجة، وكان من الاتِّفاق أن تبقى المقدَّسات بأيدي المسلمين.

قال في «ذيل مرآة الزَّمان»: «وكان الملك الكامل سلَّم القدس إلى الفرنج سنة ستٍّ وعشرين على أن يكون الحرم الشَّريف بما فيه من المزارات للمسلمين، وكذا جميع أعمال القدس ما خلا عشر ضياع على طريق الفرنج من عكا إلى القدس، وشرط أن يكون القدس خراباً ولا يجدِّد فيه عمارة البتة. فلما مات الملك

ذكر المقريزيُّ في «السُّلوك لمعرفة دول الملوك» أن قد قدم السِّراج إلى مصر برفقة السُّلطان المعظَّم غياث الدِّين توران شاه بن الصَّالح نجم الدِّين أيُّوب بن الكامل محمَّد بن العادل (ت:٦٤٨هـ) عندما طلبت منه زوجة أبيه شجر الدُّرِّ الحضور لتولِّي الأمر لموت أبيه، وكان برفقته كذلك الإمام عزُّ الدِّين بن عبد السَّلام وبهاء الدِّين بن الجميزيِّ وغيرهما من العلماء[1].

وفي سنة ٦٥٥هـ دخل في خدمة سلطان السَّلاجقة في قونية، وألَّف «اللطائف الحكمة» باسم سلطان السَّلاجقة فيها.

وقال اليونينيُّ في «مرآة الزَّمان»: «حكى القاضي سراج الدِّين الأرمويُّ رحمه الله أنَّه توجَّه إلى هولاكو رسولاً من جهة صاحب الرُّوم بعد أخذه بغداد. قال سراج الدِّين: فلمَّا دخلت عليه وجدت حوله صبيّاً صغيراً يلعب، فلمَّا وقعت عيني على الصَّغير أخذ بمجامع قلبي ولم أستطع كفَّ بصري عنه، فلمَّا رأى ذلك منِّي هولاكو قال للتُّرجمان: قل له: تعرف هذا الصَّبي مَن هو؟ قال سراج الدِّين: فلمَّا قال لي التُّرجمان ذلك قلتُ: لا. قال:

الكامل وجرى ما ذكرناه من الاختلاف بين الملوك عمَّر الفرنج في غربيه قلعة جعلوا برج داود عليه السَّلام من أبراجها، وكان بقي هذا البرج لم يخرَّب لما خرَّب الملك المعظَّم أسوار القدس، ولما اعتقل الملك النَّاصر داود الملك الصَّالح نجم الدِّين بالكرك توجه الملك النَّاصر بعسكره ومن معه من أصحاب الملك الصَّالح نجم الدِّين إلى القدس ونازل القلعة التي بناها الفرنج ونصب عليها المجانيق ولم يزل مصابراً لها حتى سُلِّمت إليه بالأمان فهدمها وهدم برج داود عليه السَّلام واستولى على القدس ومضى من كان فيه من الفرنج إلى بلادهم».

(١) وهو قد كان في مصر قبل هذا، إذ قد توفِّي الملك الصَّالح سنة ٦٤٧هـ وذهاب الإمام السِّراج إلى ملطية من مصر كان قبل وفاة الشَّيخ الكرمانيِّ سنة ٦٣٥هـ.

فَلِمَ تُديم النَّظر إليه؟ فقلت: أجد نفسي الميل إليه من غير اختيار منِّي. فقال: هذا ولد الخليفة[1]. قال سراج الدِّين: فقمت قائماً وقبلت قَدَمَي ذلك الصَّغير. فقال هولاكو للتُّرجمان: عرِّفه أنَّا قد أقمنا له مَن يؤدِّبه بآداب المسلمين ويعلِّمه دين الإسلام، ولم ندخله في دين المُغل. قال سراج الدِّين: فقلتُ ما ناسب من الشُّكر له على ذلك وتحقَّقت رجحان عقله».

وقد اشتغل الإمام السِّراج في قونية قاضياً ثمَّ قاضياً للقضاة وتوفِّي وهو كذلك سنة ٦٨٢هـ رحمه الله تعالى.

والحاصل أنَّا عرفنا أنَّ حياة الإمام السِّراج كانت حافلة جدّاً بقليل الأخبار التي وصلتنا عنه، وليت لنا معرفة أكثر من ذلك عنه رحمه الله تعالى وتقبَّله، آمين.

---

(١) نقل الحافظ الذَّهبيُّ في «سير أعلام النُّبلاء» عن الشَّيخ ظهير الدِّين الكازرونيِّ في تاريخه: «قال: وقتل ابناه – المستعصم – أحمد وعبد الرَّحمن، وبقي ولده مبارك وفاطمة وخديجة ومريم في أسر التَّتار. قلت – أي الذَّهبيُّ –: وله ذرِّيَّة إلى اليوم بأذربيجان». أي من ابن الخليفة مبارك هذا.

ممَّن تلمذ عليه:

١- صفيُّ الدِّين الهنديُّ (٧١٥هـ)، محمَّد بن عبد الرَّحيم بن محمَّد، الشَّيخُ صفيُّ الدِّين الهنديُّ الأرمويُّ الأشعريُّ.

قال الإمام تاج الدِّين السُّبكيُّ في « طبقات الشَّافعيَّة الكبرى»: «كان من أعلم النَّاس بمذهب الشَّيخ أبي الحسن وأدراهم بأسراره متضلِّعاً بالأصلين.

اشتغل على القاضي سراج الدين صاحب «التَّحصيل»، وسمع من الفخر بن البخاريِّ، روى عنه شيخنا الذَّهبيُّ.

ومن تصانيفه في علم الكلام «الزُّبدة»، وفي أصول الفقه «النِّهاية» و«الفائق» و«الرِّسالة السِّينية». وكلُّ مصنفاته حسنة جامعة لا سيما النهاية.

مولده ببلاد الهند سنة أربع وأربعين وستِّمئة، ورحل إلى اليمن سنة سبع وستِّين ثم حجَّ وقَدِمَ إلى مصر ثم سار إلى الرُّوم واجتمع بسراج الدِّين،

ثمَّ قدم دمشق سنة خمس وثمانين واستوطنها ودرس بالأتابكيَّة والظَّاهريَّة الجوانيَّة وشغل النَّاس بالعلم.

توفي بدمشق سنة خمس عشرة وسبعمئة.

وكان خطُّه في غاية الرَّداءة، وكان رجلاً ظريفاً ساذجاً، فيُحكى أنَّه قال: وجدت في سوق الكتب مرَّة كتاباً بخطٍّ ظننتُه أقبحَ من خطِّي فغاليتُ في ثمنه واشتريته لأحتجَّ به على من يدَّعي أنَّ خطِّيَ أقبح الخطوط، فلمَّا عُدتُ إلى البيت وجدته بخطِّي القديم!

ولَمَّا وقع من ابن تيميَّة في المسألة الحمويَّة ما وقع وعُقِدَ له المجلس بدار السَّعادة بين يدي الأمير تنكز وجمعت العلماء أشاروا بأنَّ الشَّيخ الهنديَّ يحضر فحضر، وكان الهنديُّ طويل النَّفس في التَّقرير؛ إذا شرع في وجه يقرِّره لا يدع شبهة ولا اعتراضاً إلَّا قد أشار

إليه في التَّقرير، بحيث لا يَتِمُّ التَّقرير إلَّا وقد بَعُدَ على المعترض مقاومته. فلَّما شرع يقرِّر أخذ ابن تيميَّة يعجِّل عليه على عادته ويخرج من شيء إلى شيء. فقال له الهنديُّ: ما أراك يا ابن تيميَّة إلَّا كالعصفور؛ حيث أردت أن أقبضه من مكان فرَّ إلى مكان آخر! وكان الأمير تنكز يُعظِّم الهنديَّ ويعتقده، وكان الهنديُّ شيخ الحاضرين كلِّهم، فكلُّهم صدر عن رأيه. وحُبِسَ ابن تيمية بسبب تلك المسألة وهي التي تضمَّنت قوله بالجهة، ونودي عليه في البلد وعلى أصحابه وعزلوا من وظائفهم».

٢- تاج الدِّين الكرديُّ الشَّافعيُّ(٦٨٠هـ)، يحيى بن محمد بن إسماعيل أبو زكريا تاج الدين الكردي الإربليُّ الشَّافعيُّ. كان فقيهاً فاضلاً ديِّناً، باشر الحكم ببلاطنس وحمص وبعلبكَّ وغيرها من البلاد، وناب في الحكم بدمشق مدة عن القاضي عزِّ الدِّين محمَّد بن الصَّائغ رحمه الله، ثم ولي القضاء بحلب وأعمالها بتقليد سلطانيٍّ، وتوجه إليها وباشر أحكامها مدة شهرين، فلما جفل النَّاس من حلب انتزح إلى حمص، وخرج يوم الخميس بكرة النهار من البلد للاجتماع بالقاضي عز الدين محمد بن الصائغ بمشهد خالد بن الوليد رضي الله عنه، والتحم القتال -مع التَّتار- وهو هناك، فقتل يوم الخميس رابع عشر شهر رجب، وقد نيف على الستين من العمر، ودفن بمقابر حمص جوار مشهد خالد بن الوليد رضي الله عنه ورحمة الله تعالى[1].

٣- مجد الدِّين الماردينيُّ القاضي(ت:٦٨٩هـ)، إسماعيل بن عبد الرَّحمن بن مكيٍّ، أبو الفداء الفقيه الشَّافعي، تُوُفِّيَ بجبل الصَّالحية سنة تسع وثمانين وستِّمئة، وصلي عليه

(١) ترجمته من «ذيل مرآة الزَّمان»، وسمَّاه في «بغية الطَّلب في تاريخ حلب» تاج الدِّين الكرديَّ.

بجامع العقيبة، ودفن في تربة البرهان الموصلي قريب مسجد القدم، وقد نيف على السِّتين.

قال قطب الدِّين اليونينيُّ: ذكر لي أنه كان في أول أمره حنبلي المذهب ثم انتقل إلى مذهب الشَّافعي وولي تدريس الأتابكية بجبل الصالحية، وولي القضاء بحلب وأعمالها، وكان سافر إلى الروم، وذكر أنه قرأ «التَّحصيل» على السِّراج الأرمويِّ[1].

٤- تقيُّ الدِّين ابن زيتون (٦٩١هـ)، أبو أحمد بن أبي بكر بن مسافر بن أبي بكر بن أحمد بن عبد الرفيع اليمنيُّ المالكيُّ الفقيه الأصوليُّ العلَّامة قاضي الجماعة بتونس. رحل إلى المشرق رحلتين: الأولى في سنة ثمان وأربعين وستِّمئة أخذ فيها عن شمس الدِّين الخُسرَوْشاهي أخذ عنه الأصلين، وسراج الدِّين الأرمويِّ وعزِّ الدِّين بن عبد السَّلام الشَّافعيِّ وفخر الدِّين البندهيِّ، وسمع الحديث من الحافظ عبد العظيم المنذريِّ وجماعةٍ غيره، وحجَّ ورجع إلى تونس بعلم كثير ورواية واسعة. ثم رحل ثانية سنة ست وخمسين فأقام بالقاهرة بالمدرسة الفاضلية وبمدرسة الصاحب بن شكر ثم حج ورجع إلى تونس فولي بها قضاء القضاة وعظم محله ونبل قدره وانتفع الناس به كان إماماً عالماً ذا فضل ودين حسن الخلق والخلق.

قال أبو عبد الله بن رشيد: كان أبو القاسم ممَّن أعزَّ العلم وصان نفسه عن الضَّعة والابتذال، وأعانه على ذلك الجِدَةُ والمال وسَعة الحال. وكان المفزع إليه في الفتيا بتونس. وهو أول من أظهر تآليف فخر الدين بن الخطيب الأصولية بإقرائه إياها بمدينة تونس، قاله الشَّيخ عفيف الدِّين عن الشَّيخ أبي الطَّيِّب النَّفزاويِّ، وكان مجلسه يغصُّ بصدور

(١) التَّرجمة من كتاب «الوافي بالوفيات».

طلَّاب العلم، وكان مهيباً وقوراً مولده في سنة إحدى وعشرين وستمائة وتوفي بتونس سنة إحدى وتسعين وستمائة[1].

٥- تاج الدِّين الكردريُّ الحنفيُّ، نسبة إلى «كردر» قرية بخوارزم. قال في «الشَّقائق النُّعمانيَّة» -بتصرُّف-: «قرأ رحمه الله على علماء عصره منهم العالم الفاضل سراج الدِّين الأُرمويُّ صاحب «المطالع» و«بيان الحكمة»، وحصَّل من العلوم شيئاً كثيراً وبرع في جميعها، وتمهر في الفقه واشتهرت فضائله في الآفاق. ولما مات داود القيصري مدرِّساً بمدرسة إزنيق نصَّبه السُّلطان أورخان مقامه ودرَّس هناك مدَّة وأفاد طلبة زمانه. وكان زوَّج إحدى ابنتيه للشَّيخ اده بالي، وزوَّج ابنته الأخرى للمولى خير الدِّين القاضي، ثم صار هو وزيراً ولقِّب بخير الدِّين باشا»[2].

من مصنَّفاته:

١- التَّحصيل من المحصول، وكتاب «المحصول» في أصول الفقه للإمام فخر الدِّين الرَّازيِّ رحمه الله. وقد شُرح «التَّحصيل» كشرح التُّستريِّ أبي سعد.

٢- لباب الأربعين، وكتاب «الأربعين في أصول الدِّين» للإمام فخر الدِّين الرَّازي رحمه الله.

(١) ترجمته منقولة من «الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب» لابن فرحون.

(٢) أشكل أن يكون الكردريُّ هو نفس الكرديِّ بخطأ الاسم، ولكنَّ ذاك شافعيٌّ وهذا حنفيٌّ، والتَّرجمة بأنَّ ذاك قاضٍ في بلاد وهذا مدرِّس في أخرى. فربما يكون الخطأ من صاحب «بغية الطَّلب» بأنْ سمَّى الكرديَّ بالكردريِّ رحمهم الله جميعاً.

٣- **مطالع الأنوار**، في المنطق والحكمة، قال في «كشف الظُّنون»: «وهو كتاب اعتنى بشأنه الفضلاء ويهتمون ببحثه ودرسه وتدريسه و يستكشفون من مظانّ درسه». وقال في ترتيب الكتاب: «رتَّبه على طرفين: الأوَّل: في المنطق. والثَّاني يشتمل على أربعة أقسام: الأوَّل: في الأمور العامَّة. الثَّاني: في الجواهر. الثَّالث: في الأعراض. الرَّابع: في العلم الإلهيِّ خاصَّة».

وعليه شروح منها:

شرح قطب الدِّين الرَّازي التَّحتاني وسمَّاه: «لوامع الأسرار»، وعليه حواشٍ لبعض الأفاضل منهم السَّيِّد الشَّريف الجرجانيُّ، كتب حاشيته عند قراءة ذلك الكتاب على محمَّد بن مباركشاه تلميذ الإمام القطب.

شرح شمس الدِّين الأصفهانيِّ أبي الثَّناء رحمه الله، وعليه حواشٍ.

شرح علاء الدِّين الطُّوسيِّ، ألَّفه بأمر السُّلطان محمَّد الفاتح رحمهما الله.

٤- **بيان الحقِّ ولسان الصِّدق**، في المنطق والحكمة. وشُرِحَ كشرح أبي سالم السَّرمينيِّ.

٥- **شرح الإشارات والتَّنبيهات**، والكتاب لابن سينا.

٦- **لطائف الحكمة**، في الحكمة والمنطق. أهداه إلى سلطان السَّلاجقة.

٧- **شرح الوجيز**، في الفقه الشَّافعيِّ، و«الوجيز» لسيِّدنا الإمام حجَّة الإسلام أبي حامد الغزاليِّ رحمه الله تعالى ورضي عنه.

٨- **أسئلة على «المحصول»**، وأغلب الظنِّ أنَّها غير ما في «التَّحصيل». وشرحها الإمام شمس الدِّين الجزريُّ وأجاب عنها.

٩- **الإرشاد على وقف الأعداد**.

١١٠- **غايات الآيات**، في المنطق.

١١- **الإيضاح**، شرح «الموجز» في المنطق. و«الموجز» للإمام أفضل الدِّين الخونجيِّ رحمه الله.

١٢- **الرِّسالة الغرَّاء في الفرق بين نوعي العلم الإلهيِّ والكلام**، وهي محلُّ التَّحقيق.

١٣- **رسالة في أمثلة التَّعارض في الأصول**، كذا ذكره في «كشف الظُّنون»، أمَّا في «هديَّة العارفين» فقد قال إنَّ اسمها: «رسالة في أمثلة التَّعاضد في الأصول».

١٤- **رسائل في علم الجدل**.

١٥- **المناهج**، في المنطق والحكمة.

ورأيتُ في «هديَّة العارفين» أنَّ من كتب الإمام السِّراج «تهذيب المحكم والمحيط الأعظم»، والصَّواب أنَّه للصَّفيِّ الأرمويِّ محمود بن محمَّد القرافيِّ المصريِّ رحمه الله.

❁ ❁ ❁

ترجمة الإمام نجم الدِّين الكاتبيِّ

(٦٠٠-٦٧٥هـ)

هو الإمام العلَّامة المنطقيُّ الحكيم الفلكيُّ المهندس أبو الحسن وأبو المعالي عليُّ بن عمرَ بن عليٍّ نجم الدِّين الكاتبيُّ القزوينيُّ(١) الشَّافعيُّ الأشعريُّ، ويشتهر باسم «دَبِيران»(٢).

وُلِدَ في رجب الخير سنة ستِّ مئة، وتوفِّيَ في رمضان المبارك سنة ستِّمئة وخمس وسبعين.

من شيوخه(٣):

١- الإمام أثير الدِّين الأبهريُّ (٦٦٣هـ)، المفضَّل بن عمر رحمه الله تعالى، تلميذ الإمام فخر الدِّين الرَّازيِّ. وهو الإمام الفاضل المحقِّق أثير الدِّين الأبهريُّ المفضَّل بن عمر بن المفضَّل السمرقنديُّ المتكلِّم الحكيم المنطقيُّ الفلكيُّ الشَّافعيُّ الأشعريُّ رحمه الله

---

(١) قد يشتبه عند البحث اسمُ عليِّ بن عمر القزوينيِّ مع اسم الإمام ابن القزوينيِّ أبي الحسن عليِّ بن عمر الحربيِّ المقرئ الفقيه المحدِّث الشَّافعيِّ الصُّوفي صاحب الكرامات المتوفَّى سنة ٤٤٢هـ رحمه الله تعالى. ترجم له الإمام ابن الصَّلاح في «طبقات الفقهاء الشَّافعيَّة» فأطال بذكر مناقبه وكراماته.

وقد يشتبه لقب نجم الدِّين القزوينيِّ كذلك مع الإمامُ عبد الغفَّار بن عبد الكريم بن عبد الغفَّار الشَّافعيِّ المتوفَّى سنة ٦٦٥هـ. كان له اليد الطُّولى في الفقه والحساب، وكان من الصَّالحين ذوي الأحوال والكرامات رحمه الله تعالى. وهو صاحب «الحاوي الصَّغير» و«اللُّباب» في الفقه الشَّافعيِّ وشرحه «العجاب»، وله كتاب في الحساب. انظر: «طبقات الشَّافعيَّة الكبرى» للإمام ابن السُّبكيِّ.

وهناك نجم الدِّين القزوينيُّ القاضي الحنفيُّ، كما في «لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ».

(٢) «دَبِيران» بفتح الدَّال وكسر الباء الموحَّدة وسكون الياء في الفارسيَّة معناها: كاتب السِّرِّ.

ويُذكر هنا قول ابن أيبك الصَّفديِّ في «الوافي بالوفيات» (٢/ ٣٧٦) في ترجمة ابن تيميَّة: «وسمعته -ابن تيميَّة- يقول عن نجم الدِّين الكاتبيِّ المعروف بدَبِيرانَ بفتح الدَّال المهملة وكسر الباء الموحَّدة، وهو الكاتبيُّ صاحب التَّوليف البديعة في المنطق، فإذا ذكره لا يقول إلَّا دُبَيران بضمِّ الدَّال وفتح الباء». فانظر إلى أدب ابن تيميَّة وحلمه على من خاصمه! وعند الله تجتمع الخصوم.

(٣) من وقفت عليهم.

تعالى. و «أبهر» مدينة فارسية قديمة بين قزوين وزنجان. وقد تكون النِّسبة إلى قبيلة عربيَّة سكنت هنالك هي «أَبْهَر» بفتح الباء.

كان من خاصَّة الأمير محيي الدين محمَّد بن محمَّد بن سعيد بن ندى الصَّاحب الكبير بن الصَّاحب شمس الدِّين الجزري بدمشق (ت:٦٥١هـ) استقل بتدبير الملك بالجزيرة بعد وفاة والده شمس الدين، وكان فاضلاً محباً للفضلاء مقرّباً لهم مكرماً لهم يلازمهم أبداً، ويتحفونه بالفوائد ويؤلفون له التَّصانيف الحسنة، وقد أهداه الشَّيخ الأبهريُّ بعضاً من مصنَّفاته.

تلمذ على الإمام فخر الدِّين الرَّازيِّ والإمامِ قطب الدِّين المصريِّ تلميذ الإمام الفخر، وتلمذ على الإمام كمال الدِّين ابن يونس.

وتلمذ عليه الإمام نجم الدِّين الكاتبيُّ والإمام شمس الدِّين الأصفهانيُّ «شارح المحصول» والإمام ابن خلِّكان والطوسيُّ نصير الدِّين وغيرهم.

٢- الإمام أفضل الدِّين الخونجيُّ (٦٤٦هـ)، أبو عبد الله محمَّد بن ناماور قاضي قضاة مصر الفقيه المتكلِّم المنطقيُّ الشَّافعيُّ الأشعريُّ رحمه الله تعالى.

وُلد سنة (٥٩٠هـ)، وتلمذ على الإمام فخر الدِّين الرَّازي رحمه الله، وتُوُفِّيَ بمصر يوم الأربعاء (١٥/ رمضان/ ٦٤٦هـ)، ودفن بالقرافة.

تلمذ عليه الإمام نجم الدِّين الكاتبيُّ، وشمس الدِّين الأسوانيُّ.

وله مصنَّفات في المنطق كـ «كشف الأسرار عن غوامض الأفكار» و«الموجز» و«الجمل»، وله مصنَّفات في الطِّبِّ.

قال ابن أبي أصيبعة: «تميَّز في العلوم الحكميَّة وأتقن الأمور الشرعيَّة قويُّ الاشتغال كثير التَّحصيل، اجتمعت به ووجدته الغاية القصوى في سائر العلوم».

وقال في «الوافي بالوفيات»: «كان رحمه الله تلحقه غفلة فيما يفكر فيه من المسائل العقليَّة، وله في ذلك حكايات مأثورة عنه، منها أن جلس يوماً عند السُّلطان وأدخل يده

في رزَّة[1] هناك ونسي روحه في الفكرة التي هو فيها فنشبت أصبعه في الرُّزَّة، وقام الجماعة وهو جالس قد عاقته أصبعه عن القيام فظنَّ السُّلطان أنَّ له شغلاً أخَّره فقال له: أللقاضي حاجة؟ قال: نعم؛ تفك أصبعي! فأُحضِرَ حداد وخلَّصها. فقال: إنَّني فكرت في بسط هذا الإيوان بهذه البسط فوجدته يتوفَّر فيه بساط إذا بسط على ما دار في ذهني، فبسط كما قال لهم ففضل من البسط بساط واحد».

٣- الإمام شمس الدِّين السَّمرقنديُّ (بعد ٦٩٠هـ)، محمَّد بن أشرف الحسينيُّ الحكيم المهندس، تلمذ عليه في المنطق. وهو صاحب «الصَّحائف الإلهيَّة» وشرحها «المعارف» وغيرهما. وقد ذكر تلمذته محقِّق «حكمة العين» الدكتور صالح آيدن بن عبد الحميد[2]، ومحقِّق «الحديقة الهلاليَّة» عليُّ الموسويُّ الخراسانيُّ، ولم أجد سواهما أشار إلى ذلك، ولم أجد مصدريهما فيه.

وقد قال بعض المؤرِّخين إنَّ الإمام نجم الدِّين قد تلمذ على النَّصير الطُّوسيِّ، وهذا بعيد جدّاً؛ فإنَّ الإمام الكاتبيَّ قد وُلِد سنة ٦٠٠هـ والطُّوسيَّ وُلِدَ سنة ٥٩٧هـ فتقارب عمريهما يمنع التَّلمذة، خاصَّة أنَّ كليهما قد تلمذ على الإمام الأثير الأبهريِّ وغيره من طبقته.

وقد قال الطُّوسيُّ في أوَّل تعليقاته على رسالة الإمام الكاتبيِّ التي تُنشر هاهنا: «طالعت الرِّسالة التي عملها مولانا الإمام الكبير نجم الملَّة والدِّين عزُّ الإسلام والمسلمين أفضل العالم عليُّ الكاتبيُّ القزوينيُّ». فيمتنع أن يكون ذلك لتلميذ له.

وكذلك فإنَّ ابن المطهَّر الحِليَّ الرَّافضيَّ قد ترجم للإمام الكاتبيِّ بأنَّه شيخه ولم يذكر له تلمذة على الطُّوسيِّ، ولو كان له تلمذة عليه لفرح بها الحليُّ ونشرها.

---

(١) هي الحديدة التي يُدخل فيها القُفل.

(٢) نقلت من هذا الكتاب معلومات عدَّة عن الإمام الكاتبيِّ رحمه الله ما لم أجد في المصادر المعروفة التي بين يديَّ. ولعلَّ ما توافر عنده زائداً كان من كتب غير عربيَّة.

واحتمال سبب الوهم بتلمذة الإمام الكاتبيِّ على الطُّوسيِّ ربما يكون بأنَّ الإمام الكاتبيَّ قد شارك في بناء مرصد مراغة مع الطُّوسيِّ. وكون الإمام الكاتبيِّ قد ساهم في بناء مرصد مراغة لا يعني تبعيَّته للطُّوسيِّ، بل هو مهندس مشارك.

فبعد هذا يقال إنَّه وإن كان هناك عدد يقول إنَّ الإمام النَّجم قد تلمذ على الطُّوسيِّ فإنَّ هذا لا يكفي لذاته، إذ أقصى ما يقال أنَّ بعضهم قد نقل عن بعض. وقد تبيَّن بطلانه بما يكفي.

والحقُّ أنَّ الإمام الكاتبيَّ كان معاصراً للطوسيِّ فكان بينهما مباحثات كثيرة وردود.

من تلاميذه:

١- الإمام قطب الدِّين الشِّيرازيُّ «العلَّامة» (٧١٠)، محمود بن مسعود بن مصلح الفقيه المحدِّث المفسِّر الأصوليُّ الحكيم الصُّوفيُّ الطَّبيب المهندس الفلكيُّ القاضي الشَّافعيُّ الأشعريُّ رحمه الله تعالى.

وُلد سنة ٦٣٤هـ وتوفِّي في ٢٤/ رمضان/ ٧١٠هـ بتبريز، وقد أوصى أن يُدفن إلى جانب الإمام ناصر الدِّين البيضاويِّ رحمهما الله تعالى. وقال صاحب «نفح الطِّيب»: «سمعت الشَّيخ شمس الدِّين الأصبهاني بخانقاه قوصون بمصر يقول إن شيخه القطب توفِّي عام أحد عشر وسبعمئة وله سبع وسبعون سنة» فهنا توافق بين سنة وفاته وعمره، لكنَّه خلاف الأكثرين الذين فصَّل بعضهم بيوم وفاته كما سبق. والله تعالى أعلم.

قرأ أوَّلاً على أبيه -وقد كان طبيباً- وعلى عمِّه وعلى الزَّكيِّ البركشائيِّ والشَّمس الكتبيِّ، وتلمذ كذلك على النَّصير الطُّوسيِّ.

يُحكى أنَّ الطُّوسيَّ قد قدم مجلس الإمام النَّجم الكاتبيِّ في بغداد وكان فيه الإمام القطب الشِّيرازيُّ، فأعجب الطُّوسيُّ به فسأل الإمامَ النَّجمَ أن يولِّيه إيَّاه ليتتلمذ الإمام الشِّيرازيُّ عليه فقال الإمام النَّجم إنَّ ذلك إنَّما هو باختيار الإمام القطب. فقال الإمام القطب إنَّه يرضى بأن يتَّلمذ على الطُّوسيِّ بشرط أن يجيب عن كلِّ سؤال يسأله إيَّاه. فكان

كذلك حتَّى فاقه بعدُ. وقد قال له السُّلطان أبغا بن هلاكو: أنت أفضل تلامذة النَّصير، وقد كَبِرَ فاجتهد أن لا يفوتك شيء من علومه. فقال: قد فعلتُ وما بقي لي به حاجة.

ودرَّس الإمام القطب في المدرسة النِّظاميَّة ببغداد، ودرَّس في دمشق العقليَّات والتَّفسير والطِّبَّ وحدَّث فيها بـ «جامع الأصول»، ودرَّس في تبريز.

وقد وصف المؤرِّخون الإمام القطب بأوصاف منها أنَّه كان بحراً في العلوم ومن أذكياء العالم، طريفاً في التَّدريس ويورد الهزليَّات في دروسه، وكان ذا مروءة وأخلاق حسان ومحاسن وتلامذة يبالغون في تعظيمه، وقد استمرَّ على تعظيمه مَن بعدهم حتى صار «العلَّامة» إذا أطلق لا يفهم غيره، كثير التَّأليف في العقليَّات والتَّفسير والطِّبِّ.

وكان كثير المخالطة للملوك متحرِّزاً، وكان ظريفاً مزَّاحاً لا يحمل همّاً، ولم يغير زيَّ الصُّوفيَّة. وكان يجيد اللَّعب بالشُّطرنج ويديمه حتَّى في أوقات اعتكافه، وكان يتقن الشَّعبذة ويضرب بالرَّباب.

وكان دخله في العام ثلاثين ألفاً فكان لا يدَّخر منها شيئاً؛ بل ينفقه على تلامذته. وكان إذا صنف كتاباً صام ولازم السَّهر، ومُسودَّته مبيَّضة. وكان غازان يعظِّمه ويعطيه. وكان كثير الشَّفاعات.

ولقبه عند الفضلاء «الشَّارح العلَّامة».

وكان يخضع للفقهاء ويلازم الصَّلاة في الجماعة ويوصي بحفظ القرآن، وكان إذا مُدِحَ يخشع، وكان يقول: «أتمنَّى أنْ لو كنتُ في زمن النَّبي ﷺ ولم يكن لي سمع ولا بصر رجاء أن يلحظني بنظرة».

وقال الحافظ الذَّهبيُّ إنَّه كان على دين العجائز، فإن كان قصد أنَّه كان مشبِّهاً مجسِّماً فهو ليس بشيء! وكيف يوصي الإمام القطب بدفنه إلى جانب الإمام البيضاويِّ وهو على غير اعتقاده؟!

وله مصنَّفات عدَّة متنوِّعة العلوم ماتناً وشارحاً فله تفسير «فتح المنَّان في تفسير القرآن»[١]، و«شرح مختصر ابن الحاجب» في أصول الفقه، و «شرح الكلِّيَّات» في الطِّبِّ، و«نهاية الإدراك في دراية الأفلاك» في الفلك والبصريَّات والميكانيكا[٢]، و«التُّحفة» في الهندسة، و «درَّة التَّاج» في الحكمة، و«شرح المفتاح» في البلاغة. وشرح «حكمة الإشراق».

ومن تلاميذ الإمام القطب كمالُ الدِّين الفارسيُّ، وهو فيزيائيٌّ عظيم في تفسير ظواهر الطَّبيعة كتفسير قوس قزح -بل اشتغل الإمام الشِّيرازيُّ نفسه في تفسيرها- وغير ذلك.

٢- ظهير الدِّين الكازارونيُّ (٦٩٧هـ)، عليُّ بن محمَّد بن محمود الفقيه الشَّافعيُّ البغداديُّ الشَّيخ الإمام.

قال ابن أيبك في «أعيان العصر وأعوان النصر»: «كان فاضلاً حاسباً فرضيّاً متأدِّباً مؤرِّخاً شاعراً مصنِّفاً ماهراً كثير التِّلاوة والعبادة والإنابة، غزير الوقار والمهابة».

ترجمه الحافظ الذَّهبيُّ في معجم مختصٍّ بذكر من جالسه أو أجاز له من مرويَّاته فقال: «عليُّ بن محمَّد بن محمود الشَّيخ الإمام المؤرِّخ ظهير الدِّين الكازروني ثمَّ البغداديُّ العدل، كتب إليَّ بمرويَّاته عام سبعة وتسعين وستِّمئة، وكان مولده سنة إحدى عشرة وستِّمئة، ضبطه الفرضيُّ.

وسمع من الحسن ابن السَّيِّد العلويِّ والحافظ أبي عبد الله ابن الدَّبيثيِّ ومحمَّد بن عبد الرَّحمن اليوسفيِّ وغيرهم. علَّقتُ فوائد من تاريخه.

تُوُفِّي في رجب سنة سبع وتسعين وستِّمئة، وله شعر جيِّد وأدب، وقد روى لنا بقيده من صحيح مسلم، وإجازته من المؤيَّد الطُّوسيِّ».

---

(١) هذا الاسم للتَّفسير من «كشف الظُّنون» وقال إنَّه في أربعين مجلَّداً، ووصف الشَّيخ الكوثريُّ رحمه الله في مقالاته هذا التَّفسير بأنَّه ضخم، وقال إنَّ جزاه الأوَّل في مصر والباقي في تركيَّا.

(٢) وفي عصرنا هذا بحوث في إبداعات الإمام القطب الفلكيَّة والفيزيائيَّة.

وقال ابن أبيك: إنَّه توفِّي في ١٤/ ربيع الأنور/ ٦٩٧هـ.

وقال: «ومن مصنَّفاته كتاب «النِّبراس المضيء» في الفقه، وكتاب «المنظومة الأسديَّة» في اللُّغة، مجلَّدة، وكتاب «كنز الحساب» في الحساب، مجلَّدة، وكتاب «روضة الأريب» في التَّاريخ، سبعة وعشرون مجلَّداً، وصنَّف في السِّيرة وفي التَّصوُّف، وله كتاب «الملاحة في الفلاحة»». وله كذلك «مختصر التَّاريخ»، وله ذيل على «الإنباء في تاريخ الخلفاء»، وهو لابن العمرانيّ، وله «مقامة في قواعد بغداد»

٣- ابن المطهَّر الحلِّيّ (٧٢٦)هـ الحسن بن يوسف بن عليٍّ جمال الدِّين كبير الاثني عشريَّة في زمانه عالم بالمعقولات محقِّق في فقههم، وله مؤلَّفات كثيرة.

قال عن الإمام الكاتبيّ في إجازته لبني زهرة[1]: «ومن ذلك -أي ما أجيز به- جميع ما صنفه شيخنا السَّعيد[2] نجم الدِّين عليُّ بن عمر الكاتبيُّ القزوينيُّ، ويعرف بدَبِيران، وما قرأه ورواه أو أجيز له روايته عنِّي عنه.

كان من فضلاء العصر وأعلمهم بالمنطق وله تصانيف كثيرة، قرأت عليه شرح الكشف[1] إلا ما شذَّ، وكان له خلق حسن ومناظرات جيِّدة، وكان من أفضل علماء الشَّافعية عارفاً بالحكمة» وقال إنَّه كان أعلم أهل زمانه بالمنطق والهندسة وآلات الرَّصد.

---

(١) ينقل عنها من يُتَرجِمُه كثيراً، وانظر نصَّه في: «إرشاد الأذهان» لابن المطهَّر الحلِّيّ، الحسن بن يوسف. تحقيق: فارس حسُّون. مطبعة مؤسَّسة النَّشر الإسلاميّ. قم - ١٤١٠هـ.

(٢) وصفُ الحلِّيِّ الإمام الكاتبيَّ بالسَّعيد هنا الأغلب أنَّه مجاملة منه، فإنَّ الرَّافضة يحكمون بكفر من لم يؤمن بفاسد معتقدهم في الإمامة وإن كانوا يعاملونه بالإسلام ظاهريّاً، ومنهم من يحكم بالإسلام دون الإيمان.

والوصف بالسَّعادة إنَّما هو بالسَّعادة الأخرويَّة، فهو حكم بالإيمان، والإمام الكاتبيُّ شافعيٌّ كما أقرَّ الحلِّيُّ؛ فلا يكون قصد سعادته رحمه الله تعالى على الحقيقة، والله تعالى أعلم.

ويروي ابن المطهَّر عن الإمام الكاتبيِّ عن الإمام أثير الدِّين الأبهريِّ والإمام أفضل الدِّين الخونجيِّ عن الإمام فخر الدِّين الرَّازيِّ -رحمهم الله-.

ويروي ابن المطهَّر كذلك عن أبيه عن الإمام الكاتبيِّ عن الإمام الأثير عن الإمام الفخر.

٤- العماد القزوينيُّ، قال في «الوافي بالوفيات»: «وزير بغداد أبو الفضل عماد الدِّين القزوينيُّ الوزير الكبير صاحب الدِّيوان ببغداد، ولي العراق لهولاكو بعد ابن العلقميِّ فكان ظالماً فقُتِلَ سنة تسع وخمسين وستِّمئة بسيف المغل، وولي بعده الصَّاحب علاء الدِّين صاحب الدِّيوان».

وقد ذكر تلمذة الظَّهير الكازارونيّ والعماد القزوينيِّ غير واحد، إلا أنِّي لم أعلم أصل هذا القول.

الإمام الكاتبيُّ شافعيٌّ أشعريٌّ

المعروف عن الإمام الكاتبيِّ أنَّه قد صنَّف في الفلسفة والمنطق، فقد يُقال إنَّه بذلك ليس سنِّيّاً أشعريّاً.

والحقُّ أنَّ التَّصنيف في هذين العلمين لا يعني كون المصنِّف معتقداً اعتقاد الفلاسفة، بل قد يكون تابعاً لمذهب إسلاميٍّ، فإنَّ أئمَّة كثيرين قد صنَّفوا فيهما مع أنَّهم يقيناً متحقِّقون بمذهب أهل السُّنَّة والجماعة الأشاعرة. فمنهم الإمام حجَّة الإسلام الغزاليُّ و الإمام فخر الدِّين الرَّازيُّ والإمام أثير الدِّين الأبهريُّ وسراج الدِّين الأرمويُّ وغيرهم، مع أنَّ هؤلاء يقيناً أشعريَّة شافعيَّة.

---

(١) يقصد كتاب: «كشف الأسرار عن غوامض الأفكار» في علم المنطق للإمام أفضل الدِّين الخونجيِّ، والشَّرح للإمام الكاتبيِّ.رحمه الله.

ثمَّ إنَّ الإمام نجم الدِّين الكاتبيَّ رحمه الله قد صنَّف في اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة، فله «المفصَّل» شرح «المحصَّل» وهو للإمام فخر الدِّين الرَّازيِّ رحمه الله في الاعتقاد، والإمام الكاتبيُّ في شرحه مبيِّن قول أهل السُّنَّة شارح له.

ثمَّ إنِّي وجدت صاحب «هديَّة العارفين» رحمه الله يقول إنَّ الإمام الكاتبيَّ رحمه الله كان شيعيّاً! ووالله إنَّ هذا لباطل! فإنَّ الإمام الكاتبيَّ في مسألة الإمامة في آخر «المفصَّل» يردُّ على الرَّافضة قولهم بعصمة الإمام.

ثمَّ إنَّ ابن المطهَّر الحلِّيَّ الرَّافضيَّ تلميذ الإمام الكاتبيِّ ينصُّ نصّاً على أنَّ الإمام الكاتبيَّ رحمه الله كان من أفضل علماء الشَّافعيَّة رضي الله عنهم، ولو كان رافضيّاً مثلهم لفرح بمثل هذا الحلِّيِّ!

فإن قيل: كيف يكون ابن المطهَّر الرَّافضيُّ تلميذاً لواحد سُنِّيٍّ؟

أجيب بأنَّ ذلك موجود وارد كثير، فإنَّ الطُّوسيَّ نفسه قد تلمذ على ثلاثة من أكابر أهل السُّنَّة شافعيَّة أشاعرة هم الإمام كمال الدِّين ابن يونس والإمام قطب الدِّين المصريُّ والإمام أثير الدِّين الأبهريُّ.

ثمَّ إنَّ الشَّيخ ظهير الدِّين الكازرونيَّ قد تلمذ على الإمام الكاتبيِّ رحمهما الله، وهو محدِّث فقيه شافعيٌّ؛ أفيكون قد تلمذ على غير سُنِّيٍّ؟! فضلاً عن أن يكون قد تلمذ على فيلسوف على غير شريعة الإسلام!

فبالمخالفة يُدرك أنَّ الإمام الكاتبيَّ كان متشرِّعاً فوق يقينيَّة كونه شافعيّاً.

من أخباره:

لم أجد فيما بين يديَّ ما يروي غُلًّا أو يشفي من علَّة من أخبار الإمام الكاتبيِّ رحمه الله، ومن قليل ما وجدت قصَّة في «نفح الطِّيب من غصن الأندلس الرَّطيب» فقال: «سمعت الآبليَّ يقول: دخل قطب الدِّين الشِّيرازيُّ والدَّبيران على أفضل الدِّين الخونجيِّ ببلده وقد تزيَّا بزيِّ القونويَّة، فسأله أحدهما عن مسألة فأجابه فتعايا عن الفهم، وقرَّب التَّقرير فتعايا.

فقال الخونجي متمثِّلاً:

على نحت المعاني من معادنها وما علي لكم أن تفهم البقر

فقال له: ضُم التَّاء يا مولانا. فعرفها فحملها إلى بيته».

ثمَّ قال «نفح الطِّيب» «قلت: سمعت الشَّيخ شمس الدِّين الأصبهاني بخانقاه قوصون بمصر يقول إن شيخه القطب تُوُفِّيَ عام أحد عشر وسبعمئة وله سبع وسبعون سنة، وهذا يضعف هذه الحكاية عندي».

ويقال هنا إنَّ جهة الضَّعف التي أشار إليها هي أنَّ الإمام القطب الشِّيرازيَّ رحمه الله إنَّما وُلِدَ سنة ٦٣٤هـ، والإمام الخونجيُّ رحمه الله توفِّي سنة ٦٤٦هـ، فيكون عُمُر الإمام القطب عند وفاة الإمام الخونجيِّ اثنتا عشرة سنة. وهذا لا ينفي صحَّة القصَّة بل يضعفها، والله أعلم.

وقال محقِّق «حكمة العين» إنَّ الإمام الكاتبيَّ قد درَّس في قزوين وجُوَين زمناً طويلاً، وقال إنَّه كان يفضِّل خلافة العبَّاسيِّين على حكم المغول نقلاً عن الحلِّيِّ، وذلك مع أنَّه كان هناك علاقة قويَّة بين الإمام الكاتبيِّ وشمس الدِّين الجوينيِّ صاحب الدِّيوان في دولة المغول، المقتول سنة ٦٨٣هـ[1]، ذكر هذا محقِّق «حكمة العين» كذلك.

---

(١) قال الحافظ الذَّهبيُّ في «تاريخ الإسلام»: «محمَّد بن محمد وزير ممالك التَّتار، الصَّاحب، شمس الدِّين الجوينيُّ. قتله أرغون بن أبغا مظلوماً في آخر العام، أو في سنة اثنتين».

وقد شارك الإمام الكاتبيُّ رحمه الله في بناء مرصد مراغة الفلكيِّ، فقد قال الطُّوسيُّ -نقلاً عن «الوافي بالوفيات»-: «أنّي جمعت لبناء الرَّصد جماعة من الحكماء منهم المؤيَّد العرضيُّ من دمشق، والفخر المراغيُّ الذي كان بالموصل، والفخر الخلاطيُّ الذي كان بتفليس، والنَّجم دبيران القزوينيُّ، وابتدأنا ببنائه في سنة سبع وخمسين وستِّ مئة في جمادى الأولى بمراغة».

مصنَّفاته:

١- **المفصَّل شرح المحصَّل**، و«محصَّل أفكار المتقدِّمين والمتأخِّرين من الحكماء والمتكلِّمين» للإمام فخر الدِّين الرَّازيِّ رحمه الله تعالى في علم الكلام[1].

٢- **المنصَّص شرح الملخَّص**، و«الملخَّص» للإمام فخر الدِّين كذلك في المنطق والحكمة.

٣- **الشَّمسيَّة**، متن مختصر في المنطق، سمَّاه بلقب الخواجة شمس الدِّين محمَّد، وهو متن مشهور توارد عليه الأكابر بالشُّروح والحواشي، فمن الشُّروح شرح الإمام سعد الدِّين التَّفتازانيِّ، وعليه تعليقات للعلَّامة عبد الحكيم السِّيالكوتي، وشرح شيخه الإمام قطب الدِّين الرَّازي التَّحتانيِّ وللسَّيِّد الشَّريف الجرجانيِّ حاشية عليه، وعلى هذه الحاشية حواشٍ لعلماء عدَّة. ومن الشُّروح شرح الفاضل علاء الدِّين «مصنِّفك»، وشرح للإمام جلال الدِّين المحلِّيِّ لم يكمله، وشرح لابن المطهَّر الحلِّيِّ.

(١) قال في مقدِّمة الشَّرح: «...أمَّا بعد، فإنَّ كتاب المحصَّل الذي صنَّفه مولانا الإمام العلَّامة الدَّاعي إلى الله فخر الملَّة والدِّين حجَّة الحقِّ على الخلق أبو عبد الله محمَّد بن عمر الرَّازيُّ تغمَّده الله بغفرانه وأسكنه أعلى غرف جنانه كتابٌ يحتوي على جلِّ كلام المتكلِّمين وأدلَّتهم، مع دقائق لطيفة ونكتٍ شريفة من مباحث الحكماء المتقدِّمين والمتأخِّرين، إلَّا أنَّ فيه مغالطاتٍ يصعب على النَّاظرين حلُّها، ومواضع منغلقة غير واردة على النَّظم الطَّبيعيِّ براهينُها. فأشار إليَّ مَن خصَّني...».

٤- **عين القواعد**، في المنطق، وشرحه الإمام الكاتبيُّ نفسه بكتاب «بحر الفوائد»[1].

٥- **حكمة العين**، متن كَتَبَه إضافةً إلى «العين» في العلم الإلهيِّ والطَّبيعيِّ، وشرحه العلَّامة شمس الدِّين محمَّد بن مبارك شاه المعروف بـ «ميرك» وأورد فيه حواشيَ كتبها الإمام العلَّامة قطب الدِّين الشِّيرازيُّ على «حكمة العين» بأجمعها، وعلى هذا الشَّرح حاشية للسَّيِّد الشَّريف الجرجانيِّ، وحاشية للعلَّامة ميرزا جان -رحم الله تعالى جميعهم-. وللحلِّيِّ ابن المطهَّر شرح له هو «إيضاح المقاصد».

٦- **رسالة في إثبات الواجب**، وهي التي بصدد التَّحقيق، ومعها اعتراضات الطُّوسيِّ ومناقشة الإمام الكاتبيِّ ما قرَّر الطُّوسيُّ.

٧- **جامع الدَّقائق في كشف الحقائق**، في المنطق.

٨- **شرح كشف الأسرار عن غوامض الأفكار**، و«كشف الأسرار» للإمام أفضل الدِّين الخونجيِّ رحمه الله في المنطق.

٩- **الاعتراف بالحقِّ**. وقد ذكر محقِّق «حكمة العين» أنَّ الإمام الكاتبيَّ فيه اعترف للطُّوسيِّ، ولكن لا يُسلَّم هذا النَّقل إلا إن رأينا تلك الرِّسالة وتحقَّقنا أنَّها للإمام الكاتبيِّ نفسه وفيها هذا المدَّعى. فليس يبعد أن لا تكون له أصلاً، أو أن يكون موضوعها ليس كما المدَّعى.

١٠- **مراسلات مع النَّصير الطُّوسيِّ**، في مسائل طبيعيَّة ومنطقيَّة، كسؤال عن قول الحكماء في الطُّعوم وقوَّة الذَّائقة، وفي فعل الحرارة في الرَّطب واليابس، وفي كون نقيض العامِّ أخصَّ من نقيض الخاصِّ.

١١- **شرح مفتاح العلوم**، و«مفتاح العلوم» للإمام سراج الدِّين السَّكَّاكيِّ يوسف بن أبي بكر، وهو ثلاثة أقسام: الأوَّل: في علم الصَّرف. الثَّاني: في علم النَّحو. الثَّالث: في

(١) وغلط صاحب «هديَّة العارفين» رحمه الله بأنَّ اسم الكتاب عنده «عين العقائد».

علم المعاني والبيان. ذُكِر هذا الشَّرح في «خزانة التُّراث» بأنَّ مخطوطه في المكتبة السُّليمانيَّة في إسطنبول. ولم أجد مصدراً آخر لنسبته إلى الإمام الكاتبيِّ.

١٢ – رسالة في بحث الاعتدال، في الطِّبِّ.

١٣ – أسئلة على كتاب «معالم أصول الدِّين»، و«المعالم» للإمام فخر الدِّين الرَّازيِّ رحمه الله.

١٤ – بحث في مسألة لا يصدر عن الواحد الحقيقيِّ إلا واحد.

١٥ – شرح أربعين حديثاً نبويّاً.

١٦ – رسالة في حقِّ المنطق، ولعلَّها «رسالة في حدِّ المنطق».

١٧ – رسالة في انعكاس السَّالبة الكلِّيَّة.

والعنوانات السِّتَّة الأخيرة إنَّما أشار إليها محقِّق «حكمة العين» وما وجدت غيره ذكرها.

* * *

ترجمة النَّصير الطُّوسيِّ

(٥٩٧-٦٧٢هـ)

هو محمد بن محمد بن الحسن نصير الدِّين الطُّوسيُّ الفيلسوف الفلكيُّ المنجِّم الرِّياضيُّ الشيعيُّ الرَّافضيُّ وزير هولاكو.

وُلد سنة ٥٩٧هـ ومات سنة ٦٧٢هـ.

أخذ عن الإمام قطب الدِّين المصريِّ (ت:٦١٨هـ) تلميذ الإمام فخر الدِّين الرَّازيِّ، وأخذ عن الإمام كمال الدِّين ابن يونس، وأخذ عن الإمام أثير الدِّين الأبهريِّ رحمهم الله من أكابر أهل السُّنَّة.

وأخذ عن المعين المعتزليِّ الرَّافضيِّ وأخذ عن والده وعمِّه وجدِّه وخال أبيه وغيرهم.

تلمذ عليه الإمام قطب الدِّين الشِّيرازيُّ الشَّافعيُّ رحمه الله، وابن المطهَّر الحلِّيُّ الاثني عشريُّ.

قال ابن أيبك في «الوافي بالوفيات» -بتصرُّف-: «محمَّد بن محمَّد بن الحسن نصير أبو عبد الله الطوسي الفيلسوف صاحب علوم الرِّياضي والرَّصد. كان رأساً في علم الأوائل لا سيَّما في الأرصاد والمجسطي؛ فإنَّه فاق الكبار.

قرأ على المعين سالم بن بدران المصريِّ المعتزليِّ الرَّافضيِّ وغيره، وكان ذا حرمة وافرة ومنزلة عليَّة عند هولاكو، وكان يعطيه فيما يشير به عليه والأموالُ في تصريفه، فابتنى بمدينة مراغة قبَّة ورصداً عظيماً، واتَّخذ في ذلك خزانة عظيمة فسيحة الأرجاء وملأها من

الكتب التي نُهبت من بغداد والشَّام والجزيرة حتى تجمَّع فيها زيادة على أربع مئة ألف مجلَّد[١]، وقرَّر بالرَّصد بالمنجِّمين والفلاسفة والفضلاء وجعل لهم الجامكيَّة.

وكان حسن الصُّورة سمحاً كريماً جوداً حليماً حسن العشرة غزير الفضائل جليل القدر داهية.

حكيَ لي أنَّه لما أرد العمل للرصد رأى هولاكو ما ينصرف عليه فقال له: هذا العلم المتعلِّق بالنُّجوم ما فائدته؟ أيدفع ما قُدِّرَ أن يكون؟

فقال: أنا أضرب لمنفعته مثالاً؛ القان يأمر من يطلع إلى أعلى هذا المكان ويدعه يرمي من أعلاه طست نحاس كبيراً من غير أن يعلم به أحد.

ففعل ذلك فلمَّا وقع كانت له وقعة عظيمة هائلة روَّعت كلَّ من هناك وكاد بعضهم يصعَق، وأمَّا هو وهولاكو فإنَّهما ما تغير عليهما شيء لعلمهما بأنَّ ذلك يقع.

فقال له: هذا العلم النُّجوميُّ له هذه الفائدة؛ يعلم المتحدِّث فيه ما يحدث فلا يحصل له من الرَّوعة والاكتراث ما يحصل للذَّاهل الغافل عنه. فقال: لا بأس بهذا. وأمره بالشُّروع فيه أو كما قيل.

ومن دهائه ما حكى لي أنه حصل له -هولاكو- غضب على علاء الدين الجويني صاحب الدِّيوان -فيما أظنُّ- فأمر بقلته، فجاء أخوه إليه -الطُّوسيّ- وذكر له وطلب منه إبطال ذلك.

فقال: هذا القان وهؤلاء القوم إذا أمروا بأمر ما يمكن رده خصوصاً إذا برز إلى الخارج، فقال له: لا بدَّ من الحيلة في ذلك. فتوجَّه إلى هولاكو وبيده عكاز وسبحة وإسطرلاب وخلفه من يحمل مبخرة وبخوراً والنَّار تضرم؛ فرآه خاصَّة هولاكو الذين على باب المخيم، فلمَّا وصل أخذ يزيد في البخور ويرفع الإسطرلاب ناظراً فيه ويضعه فلما

(١) هل يُعلم مكان هذه المكتبة الآن؟

رأوه يفعل ذلك دخلوا إلى هولاكو وأعلموه وخرجوا إليه فقالوا: ما الذي أوجب هذا؟ فقال: القان أين هو؟ قالوا له: جُوَّا -أي في الدَّاخل-. قال: طيِّب معافى موجود في صحة؟ قالوا: نعم. فسجد شكراً لله تعالى وقال لهم: طيِّب في نفسه؟! قالوا: نعم. وكرَّر هذا وقال: أريد أرى وجهه بعيني، إلى أن دخلوا إليه وأعلموه بذلك، وكان وقت لا يجتمع فيه به أحد، فأمر بإدخاله؛ فلمَّا رآه سجد وأطال السُّجود، فقال له: ما خبرك؟! قال: اقتضى الطَّالع في هذا الوقت أن يكون على القان أمر فظيع عظيم إلى الغاية؛ فقمت وعملت هذا وبخَّرت هذا البخور ودعوت بأدعية أعرفها أسأل الله صرفَ ذلك عن القان، يتعيَّن الآن أنَّ القان يكتب إلى سائر مماليكه ويجهِّز الألجية في هذه السَّاعة إلى سائر المملكة بإطلاق من في الاعتقال والعفو عمن له جناية أو أمر بقتله لعلَّ الله يصرف هذا الحادث العظيم، ولو لم أر وجه القان ما صدَّقت! فأمر هولاكو في ذلك الوقت بما قال وأطلق صاحب الدِّيوان في جملة الناس ولم يذكره النَّصير الطُّوسي.

وهذا غاية في الدَّهاء بلغ به مقصده ودفع عن النَّاس أذاهم وعن بعضهم إزهاق أرواحهم.

ومن حلمه ما وقفت له على ورقة حضرت إليه من شخص من جملة ما فيها يقول له: يا كلب يا ابن الكلب. فكان الجواب: وأمَّا قوله «كذا» فليس بصحيح؛ لأنَّ الكلب من ذوات الأربع وهو نابح طويل الأظفار، وأنا فمنتصب القامة بادي البشرة عريض الأظفار ناطق ضاحك، فهذه الفصول والخواصُّ غير تلك الفصول والخواصِّ وأطال في نقض كل ما قاله هكذا برطوبة وتأنٍّ غير منزعج ولم يقل في الجواب كلمة قبيحة.

ورأيت له شعراً كتبه لكمال الدِّين الطُّوسيِّ على مصنف صنَّفه المذكور وهو نظم منحطٌّ!

ومن تصانيفه كتاب «المتوسِّطات بين الهندسة والهيئة» وهو جيِّد إلى الغاية، ومقدِّمة في الهيئة وكتاباً وضعه للنُّصيريَّة، وأنا أعتقد أنَّه ما يعتقده -ما النَّافية-؛ لأنَّ هذا فيلسوف، وأولئك يعتقدون إلهية عليٍّ -رضي الله عنه ولعنهم-.

واختصر «المحصَّل» للإمام فخر الدِّين وهذَّبه وزاد فيه، وشَرَحَ «الإشارات» وردَّ فيه على الإمام فخر الدِّين في شرحه وقال: هذا جرح وما هو شرح. قال فيه: «إني حرَّرته في عشرين سنة» وناقض فخر الدِّين كثيراً.

ولقد ذكره قاضي القضاة جلال الدِّين القزوينيُّ رحمه الله يوماً وأنا حاضر وعظَّمه - أعني الشَّرح- فقلتُ: يا مولانا؛ ما عمل شيئاً! لأنَّه أخذ شرح الإمام وكلام سيف الدِّين الآمديِّ وجمع بينهما وزاده يسيراً. فقال: ما أعرف للآمديِّ في «الإشارات» شيئاً! قلت: نعم! كتاب صنَّفه وسمَّاه «كشف التَّمويهات عن الإشارات والتنبيهات». فقال: هذا ما رأيته.... وقال الشَّمس ابن المؤيَّد العرضيُّ: أخذ النَّصير العلم عن الشَّيخ كمال الدين ابن يونس الموصليِّ ومعين الدِّين سالم بن بدران المصريِّ المعتزليِّ وغيرهما. قال: وكان منجِّماً لأبغا بعد أبيه، وكان يعمل الوزارة لهولاكو من غير أن يدخل يده في الأموال، واحتوى على عقله حتى أنَّه لا يركب ولا يسافر إلا في وقت يأمره به...».

وعن دهاء الطُّوسيِّ قال الإمام تاج الدِّين السُّبكيُّ في «طبقات الشافعيَّة الكبرى»: «وأما الخليفة -العباسي- فقيل إنه -هولاكو- طلبه ليلاً وسأله عن أشياء ثم أمر به ليقتل. فقيل لهولاكو إن هذا إن أهريق دمه تظلم الدُّنيا ويكون سبب خراب ديارك، فإنَّه ابن عمِّ رسول الله ﷺ، وخليفة الله في أرضه. فقام الشَّيطان المبين الحكيم نصير الدِّين الطُّوسيُّ وقال: يُقتل ولا يُراق دمه! وكان النَّصير من أشدِّ النَّاس على المسلمين. فقيل إن الخليفة غُمَّ في بساط. وقيل: رفسوه حتى مات».

وفي كتاب «مستدركات أعيان الشِّيعة» أنَّه عندما هاجم المغول نيسابور هرب الطُّوسيُّ إلى قلاع الإسماعيليَّة الباطنيَّة إلى قلعة «ألموت»، وهي كانت حصينة فلم يقدر جنكيز خان عليهم. ثمَّ بعد ذلك بسنين هاجمهم هولاكو حفيد جنكيز فنزل أمير الإسماعيليَّة على حكم المغول فقضوا بقتله وأعوانه ومن لجأ إليه إلا ثلاثة اثنان منهم طبيبان هما موفَّق الدَّولة ورئيس الدَّولة، والثَّالث كان الطُّوسيُّ من حيث إنَّه كان فلكيّاً.

فعندما كان الطُّوسيُّ عند الإسماعيليَّة صنَّف لهم على معتقدهم عدداً من الرَّسائل، وعندما تولَّاه هولاكو صار وزيره ومستشاره ومنجِّمه وكاتب رسائله!

فقد قال ابن المطهَّر في إجازته لبني زهرة: «... وكان الشَّيخ الأعظم خواجة نصير الدِّين محمَّد بن الحسن الطُّوسيُّ قدَّس الله روحه وقد تقدَّم ذكره وزير السُّلطان هولاكو...». وتنبَّه إلى وصف الحلِّيِّ هولاكو الكافر بالسُّلطان!

وفي «مستدركات أعيان الشِّيعة» نجد أنَّ من مصنَّفات الطُّوسيِّ: «رسالة من جانب هولاكو بعد فتح بغداد إلى الملك ناصر ملك الشَّام مكتوبة بإملاء الخواجة -الطُّوسي- باللُّغة العربيَّة، وصورة هذه الرِّسالة مثبتة في كتاب «وصاف الحضرة»»[1]! وتنبَّه إلى وصف هولاكو بأنَّه «فتح» بغداد.

---

(١) ونقل الحافظ الذَّهبيُّ رحمه الله نصَّ رسالتين من هولاكو إلى الملك النَّاصر أنقلهما ليُعرف انتماء الطُّوسيِّ إلى الكافر هولاكو وولايته له، فالرِّسالة الأولى: «يعلم سلطان ملك ناصر -طال بقاؤه- أنَّه لمَّا توجهنا إلى العراق وخرج إلينا جنودهم، فقتلناهم بسيف الله تعالى، ثم خرج إلينا رؤساء البلد ومقدَّموها، فكان قصارى كلامهم سبباً لهلاك نفوسهم يستحقُّ الإذلال، فأعدمناهم أجمعين، وذلك بما قدمت أيديهم وبما كانوا يكسبون. وأمَّا ما كان من صاحب البلدة -أي الخليفة العبَّاسيُّ رحمه الله- فإنَّه خرج إلى خدمتنا، ودخل تحت عبوديتنا، فسألناه عن أشياء كذبنا فيها، فاستحقَّ الإعدام. وكان كذبه ظاهراً، ووجدوا ما عملوا حاضراً. أجب ملك البسيطة، ولا تقولنَّ: قلاعي المانعات ورجالي المقاتلات. ولقد بلغنا أنَّ شذرات من العسكر التجأت إليك هاربة، وإلى جنابك لائذة.

أين المَفرُّ ولا مَفَرٌّ لهاربٍ ... ولنا البسيطان الثَّرى والماءُ

فساعة وقوفك على كتابنا تجعل قلاع الشَّام سماها أرضاً، وطولها عرضاً. والسَّلام».

ومن كتاب ثانٍ: «خدمة ملك ناصر - طال عمره -، أمَّا بعد؛ فإنَّا فتحنا بغداد واستأصلنا مُلْكها ومَلِكها، وكان ظنَّ وقد ضنَّ بالأموال، ولن ينافس في الرِّجال أنَّ ملكه يبقى على ذلك الحال، وقد علا ذكره، ونما قدره، فخسف في الكمال بدره.

إذا تمَّ أمرٌ بدا نقصُهُ ... توقَّعْ زوالاً إذا قيل تَمّ

وهذا دالٌّ على موالاة الطُّوسيِّ لهولاكو الكافر بالله العظيم، ودالٌّ على اعتقاد الرَّافضة أنَّ هولاكو الذي دمَّر بغداد وقتَّل أهلها إنَّما هو فاتحها!

وقد كان للطُّوسيِّ مراسلات وكاتبات مع العلماء، فمنها ما كان مع الإمام الأبهري والإمام الكاتبيِّ وشمس الدِّين الكيشيِّ رحمهم الله، وفي «معجم المطبوعات» في ترجمة الصَّدر القونويِّ أبي المعالي الشَّافعيِّ الصُّوفيِّ ربيب الشَّيخ ابن عربي: «وللمترجَم مكاتبات ومراسلات مع خواجه نصير الدِّين الطُّوسيِّ في بعض المسائل الحكمية، ودار الكلام بينهما مراراً حتى اعترف النَّصير الطُّوسيُّ بالعجز والقصور».

وقد يقال: قال القنوجيُّ في «أبجد العلوم»: «وكان غالياً في التَّشيُّع كما يفصح عنه المقصد السَّادس من «التَّجريد»، إلا أنَّ الشَّيخ أكمل الدِّين -البابرتيَّ الحنفيَّ رحمه الله- قال في أواخر شرحه للتَّجريد: سمعت شيخي العلَّامة قطب الدِّين الشِّيرازي قال: كان النَّاس مختلفين في أنَّ هذا الكتاب -يعني «التَّجريد» لخواجه نصير الدِّين أو لا، فسَأَل عن ذلك ابنه خواجه أصيل الدِّين فقال : كان والدي وضعه إلى باب الإمامة وتوفِّي، فكمَّله ابن المطهَّر الحلِّيُّ، وكان من الشِّيعة وهو زائغ زيغاً عظيماً. فعلى هذه الرواية يكون بريئاً عن نقيصة التَّشيع، إلا أن المشهور عند الجمهور خلافه».

ويقال هاهنا: سواء أكان الطُّوسيُّ مَن أكمله أم لم يكمله فإنَّه له رسالة في الإمامة على طريقة الرَّافضة الاثني عشريَّة، وكذلك لا خلاف عند الرَّافضة بأنَّه منهم.

ثمَّ هنا مسألة ثانية هي أنَّ الطُّوسيَّ فيلسوف يعتقد قدم الأفلاك والعقول وغير ذلك من الكفر على معتقد الفلاسفة، فلذلك يُقدِّم في رسالته في الإمامة مقدِّمة فيقول: «فلنسلِّم هاهنا أنَّ العالم حادث والله تعالى محدثه»، فقوله هذا نصٌّ في أنَّه ينكر حدوث العالم! ثمَّ إنَّه يجعل هذه المقدِّمة سبباً في تكفير السَّبعيَّة الباطنيَّة؛ فقد قال «إن قيل:...وثالثاً: السَّبعيَّة قائلة أيضاً إنَّ الإمام منصوب من قِبَل الله وإنَّه لا يُخِلُّ بواجب ولا

ونحن في طلب الازدياد، على ممرِّ الآباد فلا تكن كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم، وأبد ما في نفسك، إما إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان». وقد نقل الذَّهبيُّ غير ذلك كذلك.

يرتكب قبيحاً، فيجب كونهم على الحقِّ أيضاً. أجيب: ...وعن الثَّالث: أنَّهم خارجون عن الملَّة بادِّعائهم قِدَم الأجسام وغيرها من الخرافات...» ليصل إلى أنَّه لا يصفو القول بالإمامة في المسلمين إلا للاثني عشريَّة!

والحقُّ أنَّه قد يقال إنَّ هذا النَّصَّ منه دالٌّ على أنَّه قد صنَّف هذه الرِّسالة على معتقد الاثني عشريَّة كما صنَّف في معتقد الإسماعيليَّة والنُّصيريَّة؛ فيكون غير قائل بواحد من هذه المعتقدات لأنَّه يخالفها جميعها!

لكنَّ معتقده ليس بخير منها. لكنَّ هذا لا يكفي في ردِّ المشهور عند الكلِّ من كون الطُّوسيِّ رافضيّاً.

بل إنَّه يُقابل بحقد الطُّوسيِّ على المسلمين في قصَّة قتل الخليفة وفي موالاته هولاكو ضدَّ المسلمين.

وقد يُقابَل بقول الحِلِّيِّ في إجازته لبني زهرة: «ومن ذلك جميع ما صنَّفه الشَّيخ السَّعيد المعظَّم خواجة نصير الملَّة والحقِّ والدِّين محمَّد بن الحسن الطُّوسيُّ قدَّس الله روحه.... نوَّر الله ضريحه»؛ فإنَّه عظَّم الطُّوسيَّ على أنَّه منهم -عادتهم-، والاثنا عشريَّة تجمعهم الاعتقاد بالامامة بتفصيلهم، فقد يكون الطُّوسيُّ قائلاً بالإمامة على طريقتهم مع اعتقاده معتقد الفلاسفة[1].

وبعد هذا يقال إنَّه إذ ثبت كون الطُّوسيِّ معتقداً قدم العالم وغير ذلك من كفريَّات الفلاسفة فتكفيره واجب، أمَّا ما قال ابن تيميَّة في «منهاج السُّنَّة النَّبويَّة»: «ومع هذا فقد قيل إنَّه كان في آخر عمره يحافظ على الصَّلوات الخمس ويشتغل بتفسير البغويِّ وبالفقه ونحو ذلك» فهو على عادة ابن تيميَّة في حبِّ هذا النَّوع من الأخبار، وهذا القيل ما لم يُسند بشيء فهو كعدمه.

---

(١) وعلى كلٍّ يقال إنَّ الرَّافضة منهم من هو مجسِّم ومنهم مَن هو على معتقد المعتزلة ومنهم مَن هو على معتقد الفلاسفة ومنهم مَن هو على معتقد القائلين بوحدة الوجود! فيجمعهم شرٌّ وتفرِّق بينهم شرور! فلربما تساهل الحلِّيُّ في عدم تكفير القائل بقدم العالم ما دام مؤمناً بالأئمَّة الاثني عشر!

فإن قيل: السَّادة العلماء لم يذكر تكفيرهم له.

أجيب: ظنُّوه على طريقة المتكلِّمين لمَّا صنَّف «التَّجريد» وهو في علم الكلام، وحسبوه غير إماميٍّ أصلاً! فإنَّه في «تلخيص المحصَّل» يترضَّى عن سيِّدينا أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وكرَّم وجهيهما وغير ذلك.

وللطُّوسيِّ مصنَّفات كثيرة أذكر بعضها:

١- التَّجريد، في علم الكلام وقد اهتمَّ به العلماء وكتبوا عليه الشُّروح والحواشي الكثيرة.

٢- شرح الإشارات، وقد سبق أن قد أفاد فيه من الإمامين الفخر الرَّازيِّ والسَّيف الآمديِّ رحمهما الله، وردَّ فيه على الإمام الرَّازيِّ.

٣- تلخيص المحصَّل، وقد ردَّ فيه على الإمام الرَّازيِّ رحمه الله.

٤- مصارع المُصارع، ردَّ فيه على كتاب «المصارعات» -وعند البعض «المصارعة»- وهو للإمام الشَّهرستانيِّ رحمه الله ردَّ فيه على الفلاسفة.

٥- تعديل المعيار في نقض «تنزيل الأفكار»، و «تنزيل الأفكار» للإمام أثير الدِّين الأبهريِّ رحمه الله تعالى

ومن تصانيفه: «كتاب المتوسِّطات بين الهندسة والهيئة»، «مقدِّمة في الهيئة»، «أوصاف الأشراف»، «قواعد العقائد»، «التَّخليص في علم الكلام»، «العروض»، «شرح الثَّمرة» لبطليموس، «كتاب المجسطي»، «جامع الحساب في التَّخت والتُّراب»، «الكرة والإسطرلاب»، «المغطّيات»، «الظاهرات»، «المناظر»، «اللَّيل والنَّهار»، «الكرة المتحرِّكة»، «الطُّلوع والغروب»، «تسطيح الكرة»، «المطالع»، «تربيع الدَّائرة»، «المخروطات»، «الشَّكل المعروف بالقطاع»، «الجواهر»، «الأسطوانة»، «الفرائض على مذهب أهل البيت»، «بقاء النفس بعد بوار البدن»، «الجبر والمقابلة»، «إثبات العقل الفعَّال»، «شرح مسألة العلم»، «رسالة الإمامة»، «الحواشي على كلِّيَّات القانون»، «الزِّيج الإيلخاني»، «رسالة ثلاثون فصلاً في معرفة التَّقويم».

وقد سبق أنَّ له شعراً وصفه الصَّفديُّ رحمه الله، وله رسائل في إثبات اعتقاد الإسماعيليَّة الباطنيَّة، وقد صنَّف في تحرير مصنَّفات إغريقيَّة في الفلك والهندسة والمناظر.

مراجع التَّراجم

«الأعلام»، لخير الدِّين الزِّركليّ. «بغية الطَّلب في تاريخ حلب»، لابن العديم.

«تاريخ ابن خلدون»، لعبد الرَّحمن ابن خلدون. «التَّحصيل» بتحقيق د. عبد الحميد علي أبو زنيد -مؤسَّسة الرِّسالة. «الحضارة الإسلامية بين أصالة الماضي وآمال المستقبل»، جمع وإعداد: علي بن نايف الشّحود. «الدِّيباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب» لابن فرحون. «ذيل كشف الظُّنون»، لآقا برزك الطِّهرانيّ. «الشَّقائق النُّعمانيَّة في علماء الدَّولة العثمانيَّة»، لطاش كبري زادة. «كشف الظُّنون»، لحاجي خليفة. «معجم البلدان»، لياقوت الحموي. «هدية العارفين»، لإسماعيل البابانيّ. «الوافي بالوفيات» و«أعيان العصر وأعوان النَّصر» لابن أيبك الصَّفديّ. «فوات الوفيات» لابن شاكر الكتبيّ. «صبح الأعشى في صناعة الإنشا» للقلقشنديّ. «حكمة العين» للإمام الكاتبيِّ بتحقيق صالح آيدن بن عبد الحميد. «نفح الطيب من غصن الأندلس الرَّطيب» للمقريِّ التِّلمسانيّ. «مقالات الكوثريّ» للشَّيخ محمَّد زاهد الكوثريّ. «لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ» لابن فهد الهاشميِّ المكيّ. «عقد الجمان في تاريخ أهل الزَّمان» لبدر الدِّين العيني. «البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السَّابع» للشَّوكانيّ. «الحديقة الهلالية» للبهائيِّ العامليّ. «إرشاد الأذهان» لابن المطهَّر الحلِّيِّ بتحقيق فارس حسُّون. «تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام» و«سير أعلام النُّبلاء» للحافظ الذَّهبيّ. «خزانة التُّراث». «اكتفاء القنوع بما هو مطبوع» ليوسف إليان سركيس. «طبقات الشَّافعيَّة الكبرى» لتاج الدِّين السُّبكيّ، «مستدركات أعيان الشِّيعة» لحسن الأمين، «منهاج السُّنَّة النَّبويَّة» لابن تيميَّة، «أبجد العلوم» للقنوجيّ، «معجم المطبوعات» ليوسف إليان سركيس،«إرشاد الأذهان» لابن المطهَّر الحلِّيِّ بتحقيق فارس حسُّون.

* * *

مقدِّمة في :

١-أقسام حكم العقل

٢-إثبات الواجب

٣- مذهب الأشعريِّ فلسفيّاً

فواجب أنّه مهما كان هناك موجودان أن يكون بينهما فرق واختلاف لأنّه لو لم يكن كذلك للزم أن يكونا شيئاً واحداً وأنّ الاثنان واحد وغير الاثنين، فيلزم التناقض.

وهاك ثالثاً بأنّا نقول إنّ زيداً إمّا داخل الدّار أو خارجها[١]. محال أن يكون داخل الدار وخارجها معاً، ومحال أن يكون لا داخل الدار ولا خارجها معاً. وذلك لأنّ مسمّى "زيد" هو جسم واحد متّصل.

فالمحال في أن يكون داخلاً خارجاً هو من لزوم أن يكون زيد في مكانين منفصلين، فيحصل التناقض من أنّه جسم واحد متّصل.

والمحال في أن يكون لا داخلاً ولا خارجاً من قولنا إنّه جسم، والجسم لا يكون إلا في مكان، والمكان إمّا داخل أو خارج.

فواجب لزيد ما دمنا قلنا إنّه جسم أن يكون إمّا داخل الدّار أو خارجها. فهذه الأمثلة ظاهرٌ لكلّ كبير وصغير الواجب فيها والمحال لانبنائها على أوّل ضروريٍّ هو أنّ الشّيء هو هو.

فهذا سنسمّيه الحكم العقليّ لأنّ مبناه على تطبيق مقابلة "نعم/ لا" -ويُسمّى الحكم المنطقيّ-. فهنا ما يكون الواجب العقليّ والممكن العقليّ والممتنع العقليّ

وهناك حكم ليس مبناه على مقابلة "نعم/ لا"، بل مبناه على مشاهدتنا تكرار حوادث معيّنة.

مثال عليه أنّا عند قياسنا تناسب التّجاذب بين الأجسام بناء على كُتلها والمسافة بينها واستقرينا ذلك في كلّ جسم مشاهد فإنّنا سنصل إلى نتيجة هي قيمة واحدة لا تتغيّر أبداً سمّيناها ثابت الجذب الكونيّ. ومثال آخر أنّا قسنا درجة حرارة الإنسان الحيّ المستيقظ فوجدنا معدّلها ٣٧ سيليزيوس، ووجدنا ذلك بعد استقراء جميع النّاس، ووجدنا أنّه مهما تغيّرت درجة حرارة الجسم فحالة الإنسان في اختلال.

---

(١) في حال أن لا عتبة للدار!

مثال آخر أنّا مهما رفعنا درجة حرارة ورقة إلى حدٍّ معيّن فإنّ الورقة ستبدأ تفاعلاً كيميائيّاً نسميّه الاحتراق، فمهما أعدنا التّجربة على مثل هذه الورقة فستكون النّتيجة نفسها إن لم نغيّر الظُّروف.

فهذه الأمثلة الثّلاثة مبناها على إدراك الواقع، فنسمّي الحكم عليها حكماً عاديّاً أو واقعيّاً.

فهنا سيكون حكم واجب واقعيٌّ وممكن واقعيٌّ وممتنع واقعيٌّ. فهنا سينشأ سؤال مهمٌّ هو أنّه هل هناك مطابقة دائماً بين الحكم المنطقيّ والحكم الواقعيّ؟ الجواب: لا.

لأنّه ليس كلُّ الأحكام الواقعيّة مبنيّاً على أصل مقابلة "نعم/ لا"، فمثلاً حكمنا بـ ١+١=٢ واجب منطقيّاً المسمّى واجب واقعيّاً لأنّا نشاهدها دائماً ولا نشاهد فيه اختلالاً ولكنّ كون ثابت الجذب الكونيّ = ٦,٦٧٢ × ١٠ ١١ في نفسه لا يلزم من فرض تغيُّره التناقض، بل قد يكون لهذه القيمة المعيَّنة سبب معيّن، فإن زال ذلك السّبب تغيّرت تلك القيمة.

إذن ليست هذه القيمة واجبة عقلاً، بل هي ممكنة عقلاً واجبة عادة. ومن هذا يقال إنّ الحكم العقليّ في ذاته محال أن ينخرق أو يتغيّر لأنّه يلزم من انخراقه التّناقض، أمّا الحكم العاديُّ فيمكن انخراقه لأنّه لا يلزم من تغيُّره التّناقض، كما أنّه لا يلزم من وجوده التّناقض. فهو إذن ممكن عقلاً مع كونه واجباً عادة. ملحوظة: المعجزات من باب خرق قانون العادة الذي هو ممكن عقلاً.

وبعد إدراك الحكم العقليّ والعاديّ يُذكر حكم ثالث هو غيرهما وهو الحكم الوضعيّ كالشّرائع الدينيّة والإنسانيّة في قوانين تعامل الأفراد وفي اللُّغات وما مثل ذلك. فهذا الحكم مبناه على إرادة فرد أو توافق أفراد على تلازمات معيّنة.

فمثلاً كلمة «قلم» التي هي حروف ملفوظة أو مكتوبة، فعند إدراك السامع أو القارئ لها تحضر لديه صورة القلم. وسبب حضور صورة القلم لدى هذا المدرك ليس

من نفس الألفاظ، أي ليس لفظ حرف القاف فاللّام فالميم في نفسه سبب لحضور صورة القلم في ذهنك، وليس هذا اللّفظ ممّا يكون في العادة دالًّا على القلم إذ غير العربيّ لا يدلُّه ذلك عا.ه

وإنّما التّلازم بين هذا اللّفظ وهذه الصورة سببه أن اتّفق النّاس[1] على أنّه إذا لُفِظَ هذا اللّفظ استحضرت صورة القلم.

فهذا «التواضع» بين النّاس ليس هناك له سبب، فيمكن أن يستبدلوا هذا اللّفظ بلفظ آخر مثل «لمق» مثلاً، فهو تابع لإرادتهم. وكذلك الأحكام الشّرعيّة إنّما هي مجعولة من الله تعالى من اختياره ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ﴾[المائدة:١].

والإشارات المروريّة كالإشارة الضوئيّة توافق النّاس على أنّها إن كانت حمراء فمعناه وجوب الوقوف، وإن كانت خضراء فمعناه وجوب المسير، ولكن ليس اللون الأحمر في ذاته سبباً للوقوف ولا الأخضر سبباً للحركة. ولو اختار النّاس غير هذه الألوان لما حصل من ذلك مشكلة.

إذن: الحكم الوضعيُّ إنّما هو تابع للاختيار بالتّلازم بين شيئين لا يلزم أن يكون بينهما تلازم من قبل.

* * *

(١) على القول إنّ اللغة اصطلاحيّة، والقول الثاني أن يكون وضع الكلمات من الله تعالى لا من البشر على خلاف.

فـــرع في إثبات الواجب

لمّا ثبت الوجود فالموجود لا يكون من قسم الممتنع، فهو إمّا واجب أو ممكن، فإن كان واجباً فقد ثبت وجود واجب الوجود الفاعل للعالم، وهو الله تعالى، وإلا فينحصر الوجود في الممكنات.

وفي هذه الحال -أي حال كون الموجودات كلّها ممكنة- يقال إنّه لمّا ثبت وجود الممكنات فكلُّ واحد منها في نفسه لا يكون إلا بأثير غيره، فكلُّ الممكنات يجب كونها مفعولة من الغير، وذلك بأنَّ وجود الشيء ترجيح لوجوده على عدمه، والممكنات أفراداً ومجموعاً ليس في أيٍّ منها التّرجيحُ لنفسه فضلاً عن غيره.

إذن: لو قلنا إنَّ الوجود محصور في الممكنات فليس وجود مجموع الممكنات هذا إلا بترجيح، وهو ليس من ممكن لأنّه سيكون داخلاً في المجموع، إذن هو من واجب. فلا تكون كلُّ الموجودات ممكنة، بل منها موجود واجب.

وبطريقة أخرى يقال إنَّ هناك موجودات ممكنة، فترجُّح وجودها على عدمها وَجَبَ، فهذا الإيجاب ليس من نفس هذا الممكن ولا من أيِّ ممكن، لأنَّ الممكن من حيث هو لا إيجاب فيه، فإذن لا بدَّ من وجود مبدأ للإيجاب، وهو ليس موجوداً ممكناً، والموجود إمّا ممكن أو واجب، إذن: هو موجود واجب الوجود.

فيثبت وجود واجب الوجود -الذي هو الله تعالى- بسهل الدّليل بعد فهم حقيقة أقسام حكم العقل.

* * *

مذهب الأشعريِّ فلسفيّاً

كثير من النَّاس متقدِّميهم ومتأخِّريهم من أهل السُّنَّة ومن غيرهم بحسن ظنٍّ أو سوئه مدحاً أو طعناً وذمّاً قالوا إنَّ مذهب الإمام الشَّيخ أبي الحسن الأشعريِّ -رحمه الله تعالى ورضي عنه- إنَّما هو حاجة شرعيَّة في وقت معيَّن لوجود المبتدعة، فكانت الحاجة إلى أن يُردُّوا عليهم بعلم الكلام.

فلزم من قولهم هذا أمران:

الأوَّل: أنَّ هذا المذهب في علم الكلام آلة محضة تستخدم للرَّدِّ على الخصوم والذَّبِّ عن الإسلام، فليس في نفس هذا المذهب تحقيق مطلب لذاته، فلا يكون من ناتِجِه إثبات شيء في ذاته لذاته.

الثَّاني -نتيجةً للأوَّل-: أنَّ هذا المذهب جدليٌّ لا برهانيٌّ، فلو كان كونه آلة محضة صحيحاً فغاية المطلب من هذا المذهب الرَّدُّ على الخصم بأيِّ طريقة، والجدل في إثبات تناقض مذهب الخصم في ذاته كافٍ ما دام الدِّين المدافع عنه صحيحاً، فلا داعي أصلاً لتأسيس قول مبرهن في نفسه ما دام المدافع عنه -الذي هو الدِّين- مبيَّناً مبرهناً لهذا المطلوب. إذن: تصير الصُّورة هكذا: الدِّين يثبت بالمعجزة، ومطلوب الدِّين يثبت بالدِّين -الذي هو النَّقل-، وإنَّما تستخدم الأدلَّة العقليَّة في الذَّبِّ عن الدِّين ليصفو الأخذ منه لا في فهمه أو تحقيقه.

ولا تكون دعوى بعيدة أن يقال إنَّ من أهل السُّنَّة من يقول هذا.

وقد يُسأل من بعد هذا بأن ما الفائدة الفلسفيَّة التي قدَّمها المذهب الأشعريُّ؟ وأيَّ الإشكالات الفلسفيَّة حلَّ؟ وما هو تفسيره للعالم؟ فإنَّ الفلسفات على اختلافها إنَّما مطلوبها التَّفسير لهذه الظَّواهر التي نسمِّيها العالم.

فما إسهام المذهب الأشعريِّ في الفلسفة؟

والجواب عن هذا كلِّه إنَّما هو بعد إثبات أمر، وهو أنَّ المذهب الأشعريَّ تحقيقٌ للإسلام، بمعنى أنَّ الأشاعرة يقولون إنَّ حقيقة الإسلام هو القول بكذا وكذا من أصول

الاعتقاد وفروعه، فيكون الخلاف مع المعتزلة والمجسِّمة مثلاً في تعيين ما أثبته الإسلام.

وفائدة هذا أن يقال إنَّ المذهب من فائدته ووظيفته الرَّدُّ على الخصوم والذَّبُّ عن الدِّين بعد فائدة أنَّه مثبت لنفس الدِّين بإثبات كون مقول الدِّين مطابقاً للأمر في ذاته -في تفسير العالم-. وقد يُسلَّم أنَّ من المتكلِّمين الأوائل -ومنهم متكلِّمو أهل السُّنَّة والجماعة- إنَّما كان همُّهم الذَّبُّ عن الإسلام لا البحث في فهم الإسلام وتحقيقه، ولكن ليس هذا هو الحاصل في مذهب الإمام الشَّيخ أبي الحسن الأشعريِّ -رحمه الله تعالى ورضي عنه- فإنَّه قد قرَّر في مذهبه مبادئ معيَّنة انطلق منها في تقرير المسائل وطردها في تفسير الموجودات جميعاً، وإنَّه إذ كان هناك من أكابر المتكلِّمين من أهل السُّنَّة قبله فأغلب الظَّنِّ أنَّه -رحمه الله- قد جمع أقوالهم ونقدها ورتَّبها وقرَّرها وحقَّقها بحيث تنضمُّ في اتِّساق واحد.

ثمَّ جاء الأئمَّة بعد الإمام الشَّيخ أبي الحسن -رحمه الله-، فليس كثيراً منهم مَن صار إلى تقرير كلامه وتبيانه مذهباً متكاملاً مطَّرداً في تفسير العالم، فإنَّ هذا إنَّما هو أمر نظريٌّ محض ليس له فائدة عمليَّة، إذ غايته التَّفسير المحضُ للعالم. وأكثر مَن صنَّف من الأئمَّة إنَّما صنَّف في تبيان أنَّ الإسلام الحقَّ في هذا المسألة هو كذا، وفي تلك كذا... وأنَّ ما جاء به الإسلام هو المطابق للواقع. ففرق بين هذين الاتِّجاهين بأنَّ المبيِّنَ للدِّين المدافعَ عنه ليس تفسيرُ العالم مقصودَه بالذَّات.

فلذلك يقال إنَّ كثيراً من النَّظر هو بأنَّ الإسلام به حلُّ جميع المشكلات الفلسفيَّة من حيث إنَّه تنزيل الحكيم العليم تعالى، وليس من حيث إنَّ الإسلام في نفسه فلسفة متكاملة في تفسير العالم. وذلك صحيح حقٌّ لا ريب فيه، ولكنَّ ما هاهنا من مطلوب هذه المقالة هو أنَّنا لو نظرنا إلى الإسلام -الظَّاهر في مذهب أهل السُّنَّة والجماعة المتجلِّي به- نظرة مقيَّدة من حيث هو مذهب مفسِّر للعالم لوجدناه مبيناً أصول المسائل الفلسفيَّة التي راودها القدماء والمحدثون والمشارقة والغربيُّون والمتغرِّبون على اختلافاتهم الكثيرة تبياناً مؤسَّساً مرسَّساً متكاملاً.

وبعد كثير الكلام السَّابق يقال: المهمَّة الفلسفيَّة الأولى هي التَّفسير، والذي حصل في تفسيره المصارعاتُ والمناقضات والأعجوبات والتُّرَّهات هو هذا العالَمُ الذي هو هذه الظَّواهر المُدركة.

وللوصول إلى تفسير العالم يجب تخطِّي قول مَن قال إنَّ العالم وهم أو إنَّ الإدراك وهم أو مَن جوَّز السَّفسطة وما مثل ذلك من وهم كثير. فيقال إنَّ الثَّابت أوَّلاً هو الإدراك، ونفيه سفسطة مخرجة من الفلسفة والعقل أصلاً، ثمَّ يقال إنَّه مهما كانت حقيقة العالم[1] فإنَّ الحاصل وجوب الاستناد والمعلوليَّة. وإثبات وجوب المعلوليَّة فرع فهم أقسام حكم العقل الوجوب والاستحالة والجواز، وفهم تعريف الممكن بأنَّه ما لم يستحقَّ لذاته الوجود ولا العدم، وكذلك فهم أنَّ كلَّ مدرك حسِّيٍّ ندركه فإنَّه من الممكنات. فإدراك هذا على وجهه يُتخطَّى به كلُّ سؤال قبل السُّؤال في تفسير العالم.

وهنا سؤال بأنَّه هل يمكن أن يوجد ممكن لا بمرجِّح، فلا نكون في حاجة أصلاً لتفسير وجود العالم؟

البداهة والضَّرورة مستند أغلب النَّاس في هذا، ولكنَّا سنجد من ينكر هذه الضَّرورة سفسطةً منه، فيقول إنَّ العلِّيَّة والمعلوليَّة قانون واقعيٌّ (عاديٌّ) لا منطقيٌّ (عقليٌّ)، فإنَّه لم يدلَّ عليه عندهم إلا التَّجربة والمشاهدة.

فيقال هاهنا بدليل عقليٍّ استناداً إلى قانون منع التَّناقض إنَّه لمَّا ثبت كون هذه الظَّواهر المشاهدة ممكنة لزم أنَّ وجود بعض الموجودات إنَّما هو لا لذواتها بل بما هو غير لها، وإذ تحقَّقنا من إمكان جميعها فاللَّازم من ذلك تساوي الممكنات جميعاً من حيث

---

(١) فإنَّه إمَّا موجودات ثابتة بذواتها أو موجودات ذهنيَّة داخليَّة أو أوهام وخيالات، وأيّاً ما كانت مرتبته فهناك أمر ثابت لا شكَّ في ثبوته، أمَّا الأوَّل –الذي هو ثبوت الموجودات– فظاهر، وأمَّا الثَّاني –الذي هو موجودات ذهنيَّة– فالثَّابت الموجود في هذا الفرض التَّفكير، وأمَّا الثَّالث –الذي هو الأوهام والخيالات– فصحيح أنَّ المتوهَّم لا يكون موجوداً، لكنَّ الوهم أمر موجود. فالحاصل أنَّ الوجود ثابت على كلِّ الاحتمالات. ومنه الانطلاق إلى ما بعده.

إمكانها، فلا يكون وجود شيء منها بأولى من حيث ذاته من شيء آخر، ولا أولويَّة لما هو موجود من الممكنات على ما ليس موجوداً منها لتساوي الكلِّ. وهذا معناه أنَّه لو وُجد أحد الممكنات دون آخر من غير مرجِّح خارج عنه للزم أن يجتمع التَّساوي بينها في إمكانها والرُّجحان لأحدها، ولكنَّ التَّساوي يمنع الرُّجحان بأنَّه نقيضه، فإنَّ التَّساوي مثل أ=ب من جهة ما، والرُّجحان بأنَّ أ > ب من نفس تلك الجهة، متناقضان من حيث إنَّه يثبت لـ (أ) الرُّجحان واللَّارجحان معاً.

وبعد هذا نصل إلى مسألة نفس تفسير العالَم؛ فيقال إنَّه إذ ثبت كون بعض الموجودات موجوداً دون بعض فلا بدَّ أن يكون بترجيح لضرورة أنَّ كلَّ ممكن موجود فهو مرجَّح. فإلى هذا الحدِّ وصلت أكثر الفلسفات، ثمَّ تفارقت.

ولننظر إلى القسمة العقليَّة في التَّرجيح، فإمَّا أن يكون الشَّيء هو ما رجَّح نفسه، أو أن يرجِّحه ممكن مثله، أو أن يرجِّحه واجب.

ويمكن ملاحظة التَّقسيم بحسب المشاهد من حدوث الحوادث، فلو فرضنا العالم كلَّه قديماً لا أوَّل له وليس يتغيَّر فليس يصعب القول بأنَّه لا بدَّ أن يكون صادراً عن واجب هو علَّة له. ولكنَّ الحاصل اليقينيَّ أنَّ العالم فيه حوادث، فيجب تفسير العالم بما فيه من حوادث.

ولننظر إلى الاحتمالات: فأمَّا الاحتمال الأوَّل بأن يكون رجَّح نفسه فهذا قول الملحدين، وهم لم يقولوا إنَّ العالم رجَّح نفسه فجأة حتَّى لا يلتزموا مخالفة الضَّرورة بوجود الممكن لا بمرجِّح، بل قالوا إنَّ العالم موجود لا من أوَّل، ووجوده في لحظة هو سبب وجوده في اللَّحظة بعدها، وأنَّ كون العالم على صورة معيَّنة (أ) في آن زمانيٍّ (١) هو السَّبب في كونه على صورة معيَّنة (ب) في الآن التَّالي (٢)، ولو كان على صورة (ج) في آن (١) لكن على صورة (د) في الآن (٢)، مثل أن ينتج من صورة التَّنافر التَّباعد، ومن التَّجاذب التَّقارب.

وقولهم هذا لازمه تسلسل الحوادث لا من أوّل، وإبطاله في المختصرات والمطوّلات شافٍ كافٍ بحمد الله تعالى، ولكن يُنبّه هنا إلى أنّ ما يقول الملحدون هنا هو أنّ العلّة يجب تقدُّمها زماناً على المعلول، بمعنى أن يحدث الفعل ثمّ يحدث الانفعال في الآن الذي بعده. وإنّما اضطرُّوا إلى هذا بأنّهم يقولون إنّ نفس أجزاء العالم هي المؤثّرة بعضُها في بعض، فلو كان العلّة منها موجوداً في نفس وقت وجود المعلول للزم قدم جميع الممكنات ولامتنع أن يحدث أيُّ حادث. فالحاصل أنّ قولهم هذا دائر مع قولهم بتسلسل الممكنات، فلو صحّ ذاك وجب هذا، ولو صحّ هذا صحّ ذاك، ولكن ليس هناك ما يصحّح أن تكون العليّة زمانيّة أصلاً[1]، فليس لهذا إلا ظاهر المشاهدة بأنّ ملامسة الخشب النّار يلحقه احتراقه، ولكنّ هذا لا يعدو كونه قانوناً عاديّاً (واقعيّا) لا يفيد كون ذلك متحقّقاً عقلاً، وهل الاختلاف إلا فيه؟!

ولكن مع هذا الفرض فإنّه يقال إنّ وجود الممكنات من غير واجب معناه ترجُّح ما ليس يستحقُّ الرُّجحان لذاته بذاته، فإنّ سلسلة الممكنات كلّها غير واجبة عقلاً، فيرجع ما سبق من أنّ هذا القول قولٌ بالتّرجيح من غير مرجِّح، وهو بيّن البطلان.

والاحتمال الثّاني أن يكون ممكنٌ منفصل عن العالم هو علّة وجوده، ولهذا الممكن علّة ممكنة وهكذا فيتسلسل، فيرجع إلى القسم السّابق بأنّ الحاصل أنّ سلسلة الممكنات هي سبب نفسها مع إمكانها، ولكنّ الممكن لا يكون سبب نفسه، هذا خلفٌ.

فيبقى أنّ العالم لا يكون إلا معلولاً لواجب الوجود تنتهي عنده سلسلة السَّببيَّة، وهنا افترق القائلون بوجود الواجب تعالى في تفسير صدور العالم عن واجب الوجود تعالى ثلاث فرق رئيسة[2]:

---

(١) بل قد تجد ما يدلُّ على بطلان القول إنّ العليّة تقتضي الزّمانيّة، وليس هذا محلّه.

(٢) يمكن القول إنّ هناك فريقاً رابعاً ذا طريقة مغايرة للفرق في تفسير صدور العالم عن الله تعالى، وهذا الفريق مذهب ابن تيميّة، وما فارق فيه يجعل خلافه مع الفرق ليس في تفسير صدور العالم عن الباري تعالى فقط، بل يخالفهم في أعلى منه بأنّه يثبت لله تعالى ما هو صفة الممكن من التّكمُّل بالغير والجسميّة

الأوّل: مذهب الفلاسفة، فإذ كان قولهم مبنيّاً على وجوب كون الواجب بسيطاً من كلّ الوجوه كان تفسيرهم لصدور العالم عنه بأنّه لم يصدر عنه إلا بواسطة، فإنّ البسيط بساطةً من كلّ الوجوه يستحيل كونه فاعلاً. فقالوا إنّ الواجب علّة لشيء سمّوه العقل الأوّل، والعقل الأوّل علّة لعقل ثانٍ وفلك، وهكذا إلى العقل العاشر «الفعّال» وفلك يدور، وبدورانه تحدث الحوادث الأرضيّة.

فالحاصل أنّ تفسير الفلاسفة هذا يعزل الواجب عن الممكن بوسائط قديمة، لكنّ ما يجري على الوسائط من أحكام فهي إن كانت أحكاماً عقليّة فهذه الوسائط إمّا أن يكون لها حكم الحادث أو القديم –ولا ثالث–، فإن صحّ لبعضها بعض أحكام الحوادث فلِمَ لا يصحُّ لكلّها، ولِمَ لا يصحُّ للقديم نفسه تعالى؟!

وإن لزم أن يكون الواجب قديماً وكذا المعلولات عنه –على قولهم– فالواجب أن يطّرد هذا الحكم إلى كلّ معلول، فيلزم أن لا يكون هناك حادث أصلاً.

فيكون تفسير الفلاسفة من حيث هو غير مطابق للواقع أصلاً لما فيه من ارتكاب تناقض داخليّ.

الثّاني: مذهب أهل القول بالوحدة، وهو ليس ببعيد عن مذهب الفلاسفة، إلا أنّهم يفسّرون حدوث الحوادث بما لها من استعدادات ذاتيّة تقتضي حدوثها، فحقيقة زيد مثلاً هي حقيقة جسم متحرّك نامٍ منفعل... وهذه الحقيقة يفيض عليها الوجود من الوجود الحقّ، فتظهر بالوجود بحسبها لا بحسب الوجود، فيكون الحدوث والانفعال وغيرهما.

وبطريق آخر عندهم قيل بالحركة الجوهريّة، فيكون الفيض من الحقّ على الجواهر التي تتحرّك حركة لا مكانيّة، بل هي حركة ذاتيّة، فالجوهر يطلب العرض دائماً لأنّه من

وغير ذلك. فمفارقته هذه تخرجه من الخلاف بين المتكلّمين والفلاسفة وأهل وحدة الوجود في تفسير صدور العالم رأساً.

حيث حقيقته لا يوجد بدونه، والعرض لا يبقى زمانين، فيلزم أن يفيض الوجود على الجوهر عرضاً بعد عرض آناً بعد آن.

وبهذا يكون تفسر حدوث التَّغيُّر مع أنَّ المُفيض قديم.

وهذا التَّفسير يلزم من حقيقته أنَّ هناك مرتبة ثبوتيَّة حقيقيَّة لما يسمُّونه بـ «الأعيان الثَّابتة» أو غير ذلك من الأسماء بحيث إنَّ لها حقائق غير مجعولة، فلا يكون كلُّ شيء فائضاً من الوجود الحقِّ، بل يكون مرآة لهذه الأعيان والحقائق.

فينتقل السُّؤال إلى هذه الحقائق، فإن كانت ممكنة فَبِمَ رُجِّحت؟ وإن كانت واجبة فقد تعدَّد الواجب إلى ما لا نهاية له من الحقائق لأنَّ الحقائق الممكنة لا نهاية لها.

فيلزم من مذهب الوحدة حصول هذا التَّناقض العظيم.

الثَّالث: مذهب أهل الحقِّ الذين قالوا إنَّ حقيقة الحقِّ تعالى التي هي وجوده هي مصداق صفاته الكماليَّة، فالموجود واحد غير مركَّب وجوداً، فثبت له تعالى من وجوبه معنى مصحِّح لأن يكون تعالى فاعلاً بالاختيار، وأن يكون تعالى عالماً قادراً حيّاً متكلِّماً سميعاً بصيراً، وسائر كمالاته تعالى. فهذه الصِّفات زائدة على الذَّات بحسب المفهوم لا بالوجود، فلذلك قال العلماء إنَّها لا عين الذَّات –من حيث المفهوم–، ولا غير الذَّات –من حيث الوجود–.

وعلى هذا التَّقرير ثبت أنَّ الله تعالى فاعل لمحض إرادته، وليس فاعلاً لغاية مرغوبة ولا عن داعية وسبب، فكان تفسيرهم لوجود العالم بأنَّ الله تعالى أراد حدوثه، وتفسيرهم لأشكال النَّاس وألوانهم وصفاتهم وصفات المخلوقات جميعاً كلِّها بكلمة واحدة هي أنَّ الله تعالى مريد لذلك.

وهذا الذي جاء به النَّقل الشَّريف، فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [الحج:١٨] و﴿يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [النور:٤٥] و ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ﴾[المائدة:١] و ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ﴾[الأنبياء:٢٣]. فكان قول أهل الحقِّ هو التَّفسير الوحيد الصَّحيح للعالم موافقاً للنَّقل الشَّريف الذي جاءت بتصديقه أعالي المعجزات وكبريات البراهين، فصدَّق النَّقلُ

العقل فعرفنا صحَّة ما وصل إليه العقل بفضل الله تعالى، وعرفنا رفعة النَّقل لَمَّا كان دالَّاً على ما دلَّ عليه العقل. وكان كلُّ اجتمع ذلك بطريق ساداتنا الأنبياء صلوات الله تعالى عليهم وسلامه تسليماً.

وهذا باب انفكاك القديم تعالى عن المحدث المخلوق، وكلُّ باب لتفسير هذا الانفكاك غير هذا الباب فهو إمَّا مؤدٍّ إلى لزوم حدوث القديم أو قِدَم المُحدث.

والمحصِّلة المرادة أنَّ مذهب أهل الحقِّ رضي الله عنهم به التَّفسير المنطقيُّ للعالَمِ عند الابتعاد عن السَّطحيَّة السَّاذجة في أدلَّة العقل والنَّقل، وعند الخوض الصَّحيح وَفق القواعد الحقَّة.

والحمد لله ربِّ العالمين.